

فهرست كتاب سيرة صلاح الدين الايوبي المسمى
النوادر السلطانيه والمحاسن اليوسفية

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ فهرست الذيل من منتخبات التاريخ لصاحب حماة ﴾

صحيفة

صحيفة

(تم)



الأيوبي

(المسماة)

بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

(تأليف)

القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد

(المتوفى سنة ٦٣٢ هجرية)

وفى ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه

(تأليف تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب رحمه الله)

يطلب من مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده
بميدان الأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله) الذى من علينا بالاسلام وهدانا بالايمان الجارى على احسن نظام * وانعم علينا بشفاعة نبينا عليه افضل الصلاة والسلام * وجعل سير الاولين عبرة لاولي الافهام * وتقلبات الاحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام * كيلا يغتر ذو جمال حسن ولا ييأس من لعبت باحواله اكف السقام (واشهد) ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تشفى القلوب من لظى الاوام (واشهد) أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي فتح للهداية ابوابا يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام * صلى الله عليه وعلي آله صلاة دائمة ببقاء الايام (وبعد) فانى لما رأيت أيام مولانا السلطان * الملك الناصر جامع كلمة الايمان * وقامع عبدة الصلبان * رافع علم العدل والاحسان * صلاح الدنيا والدين * سلطان الاسلام والمسلمين * منقذ بيت المقدس من ايدي المشركين خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى سقى الله ضريحه صوب الرضوان * واذاقه فى مقر رحمته حلاوة نتيجة الايمان * قد صدقت من أخبار الاولين ما كذبه الاستبعاد * وشهدت بالصحة لما روي من نوادر الكرام الاجواد * وحققت وقعات شجعان مماليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان * ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره فى ذات الله ما قوى به الايمان * وعظمت عجائبها عن ان يحيط بها خاطر أو يجنها جنان * وجلت نوادرها ان تحد ببيان لسان * أو أن تسطر فى طرس ببنان * وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها

اخفاؤها * ولا يسع المطلع عليها الا أن تروي عنه أخبارها وانباؤها * ومسني من رق نعمتها * وحق محبتها وواجب خدمتها * ما يجب علي به ابداء ما حققت من حسناتها * ورواية ما علمت من محاسن صفاتها .(رأيت) أن اختصر من ذلك على ما أملاه علي العيان * أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الايقان * وذلك جزء من كل * وقل من جل * ليستدل بالقليل علي الكثير * وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير * وسميت هذا المختصر من تاريخها ﴿النوادر السلطانيه * والمحاسن اليوسفيه﴾ وجملته قسمين احدهما في مولده رحمه الله ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية * وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفية * والقسم الثاني في تقلبات الاحوال به ووقائعه وفتوحه * وتواريخ ذلك أيام حياته قدس الله روحه * والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم * وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم * وهو حسبي ونعم الوكيل

﴿القسم الاول في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله رحمة الله عليه﴾

كان مولده رحمه الله على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتي بنو عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت * وكان والده أيوب بن شاذى رحمه الله تعالي واليابها وكان كريما أريحيا حليما حسن الاخلاق مولده بدوين ثم اتفق له الانتقال من تكريت الي الموصل المحروسة وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها الى أن ترعرع وكان والده محترما هو واخوه أسد الدين شيركوه عند اتابك زنكي

واتفق لوالده الانتقال الي الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور الى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربي تحت حجره ويرتضع ثدى محاسن أخلاقه حتي بدت منه أمارات السعادة* ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة* فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالي وعول عليه ونظر اليه وقربه وخصصه * ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه الى ما هو أعلى منه حتي بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة الى مصر المحروسة وذهابه اليها . وسيأتي بيان ذكر ذلك مفصلا مبينا ان شاء الله تعالي

﴿ ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية ﴾ ﴿ وملاحظته للامور الشرعية ﴾

وورد في الحديث الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال بني الاسلام على خمس شهادة أن لا إله الا الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج الى بيت الله الحرام *وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالي قد أخذ عقيدته علي الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم واكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج الي تفهمه بحيث كان اذا جري الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسناً وأن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه. غير مارق سهم النظر الي التعطيل والتمويه جارية علي نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند اكابر العلماء* وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج اليه في هذا الباب . وكان شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من

اولاده حتي ترسخ فى أذهانهم في الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه .

(وأما الصلاة) فانه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى أنه ذكر يوما أن له سنين ما صلي الا جماعة . وكان أن مرض يستدعى الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة . وكان يواظب علي السنين الرواتب . وكان له صلوات يصليها اذا استيظ فى الليل والا أتي بها قبل صلاة الصبح ولم يكن يترك الصلاة مادام عقله عليه . ولقد رأيته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما وما ترك الصلاه الا فى الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه . وكان اذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى

(وأما الزكاة) فانه مات رحمه الله تعالي ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فانها استرقت جميع ما ملكه من الاموال فانه ملك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضه الا سبعه واربعين درهما ناصرية وجرمة واحدا ذهبا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيأ من أنواع الاملاك

(وأما صوم رمضان) فانه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعدده وكان القاضى الفاضل قد تولى ثبت تلك الايام وشرع رحمه الله فى قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التى توفي فيها وقد واظب على الصوم مده حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الامراض وملازمة الجهاد عن قضائها ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالي الصوم وأقدره على ماقضاه من تلك الفوائت فكان يصوم وانا أثبت الايام التى يصومها لان القاضي كان غائبا وكان الطبيب يلوم وهو لا يسمع ويقول

لا أعلم ما يكون فكانه كان ملهما مايراد به رحمه الله تعالي

(وأما الحج) فانه كان لم يزل عازما عليه وناويا له سيما في العام الذي توفي فيه فانه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفادة ولم يبق الا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بامثاله فأخر الي العام المستقبل فقضى الله ما قضي وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام

وكان رحمه الله تعالي يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه . وكان يستقريء من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزءين والثلاثة والاربعة وهو يسمع . وكان يستقرىء وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد علي ذلك ولقد اجتاز علي صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزأ من مزرعة

وكان رحمه الله تعالي خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة اذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته . وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلالا له . وان كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعي اليه وسمع عليه . تردد الي الحافظ الاصفهاني بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروي عنه أحاديث كثيرة

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرنى في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرؤها هو فاذا مر بحديث فيه

عبرة رق قلبه ودمعت عينه

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول ببعث الاجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصدقا بجميع ماوردت به الشرائع منشرحا بذلك صدره مبغضاً للفلاسفه والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهر وردى قيل عنه أنه كان معاندا للشرائع مبطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياما فقتله

كان قدس الله روحه حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة اليه . ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه . وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها تعالى الله بينها بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكا على العدو محيطا به وقد سير اليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الاخبار بقوة عزمهم على الصعود الى القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الامراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم فى الاقامة بالقدس فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها وأصر الجميع على أنه لا مصلحة فى اقامته بنفسه فانها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمة الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم اوالتضييق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة علي ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علما منه انه أن لم يقم لم يقم

أحد فلما انصرف الامراء الي بيوتهم جاء من عندهم من أخبرانهم لا يقيمون الا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذى يأتمرون بأمره فعلم ان هذه اشارة منهم الي عدم الاقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته * ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل الى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاء وليس معنا ثالث الا الله تعالى ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني الاشفاق عليه والخوف على مزاجه فانه كان يغلب عليه اليبس فشفعت اليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت الي بيتي وأخذت لبعض شأني الا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت اصلي معه الصبح فى معظم الاوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال ما أخذني النوم أصلا فقلت قد علمت فقال من أين فقلت لاني مانمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لى واقع وأظنه مفيداً ان شاء الله تعالي فقال وما هو فقلت له الاخلاد الي الله تعالي والانابة اليه . والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه. فقال وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولي عند الرواح ويصلي على العادة بالاقصي موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ويقدم المولي التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلي المولى ركعتين بين الاذان والاقامة ويدعو الله فى سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول فى باطنك «إلهي قد انقطعت أسبابي الارضية فى نصرة دينك ولم يبق الا الاخلاد اليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل». فان الله أكرم من أن يخيب قصدك ففعل ذلك كله وصليت الي جانبه علي العادة وصلى الركعتين بين

الاذان والاقامة ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم علي سجادته ولاأسمع مايقول فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك وكان علي اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره الى الصحراء ووقفوا الى قائم الظهيرة ثم عادوا الى خيامهم وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل فى أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسيسية الى أنهم لا بدلهم من محاصرة القدس وذهب الانكتار وأتباعه الي أنه لايخاطر بدين النصرانية ويرميهم فى الجبل مع عدم المياه فان السلطان كان قد أفسد جميع ماحول القدس من المياه أنهم خرجوا المشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورن للحرب على ظهور الخيل وانهم قدنصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأى شيء أشاروا به لايخالفونهم ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين الي جهة الرملة فهذا ماشهدته من آثار استنباطه واخلاده الي الله تعالي رحمه الله

ذكر عدله رحمه الله تعالي

(روي) أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الوالي العادل ظل الله فى أرضه فمن نصحه فى نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل الا ظله ومن خانه فى نفسه أوفى عباد الله خذله الله يوم القيامة يرفع للوالى العادل فى كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه

ولقد كان رحمه الله عادلا رؤفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي. وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير

وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا . على أنه كان في جميع زمانه قابلا لجميع مايعرض عليه من القصص فى كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو فى النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلا ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . ولقد كان رؤفاً بالرعية ناصراً للدين مواظبا على تلاوة القرآن العزيز عالما بما فيه عاملا به لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه . وما استغاث اليه احد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته . ولقد رأيته واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن اخيه فأنفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه فى الحق

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل علي عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعي عمر الخلاطى وذلك اني كنت يوما فى مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمي عمر الخلاطى معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابي قلت وفى اى قضية هو خصمك فقال ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي الي أن مات وكان في يده اموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له ياشيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل فى ملكي الى ان مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وأنه قد اشتراه من

فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل
فى ملكه الى ان شذ عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب
خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الي آخره فتعجبت من هذه القضية
وقلت للرجل لاينبغى سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك
ماعنده فرضي الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه فى بقية ذلك
اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال كنت نظرت فى
الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول الى دمشق وقد
كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق شهود
معروفون فقال مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية مايقضيه
الشرع . ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له هذا الخصم يتردد ولا
بد أن نسمع دعواه فقال أقم عنى وكيلا يسمع الدعوي ثم يقيم الشهود شهادتهم
وأخر فتح الكتاب الي حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك ثم أحضر
الرجل واستدناه حتي جلس بين يديه وكنت الي جانبه ثم نزل من طراحته
حتى ساواه وقال ان كان لك دعوي فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى
ماشرح أولا فاجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتي
أعتقته وتوفى وخلف ماخلفه لورثته فقال الرجل لى بينة تشهد بما ادعيته ثم
سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه فلماسمع السلطان التاريخ قال عندي
من يشهد ان سنقر هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر وأني
اشتريته مع ثمانيه أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل
فى يدى وملكى إلي أن أعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء
والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه فأباس

الرجل فقلت له يامولاي هذا الرجل مافعل ذلك الاطايا لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولي ولا يحسن أن يرجع خائبا للقصد فقال هذابات آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذعني مقدارها . فانظر الي مافي طي هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع العذرة التامة رحمه الله تعالي رحمة واسعة

﴿ذكر طرف من كرمه رحمه الله﴾

قال صلى الله عليه وسلم اذا عثر الكريم فان الله آخذ بيده وفى الكرم أحاديث * وكرمه قدس الله روحه كان أظهر من أن يسطر * وأشهر من أن يذكر لكن نبهت عليه جملة *وذلك أنه ملك ماملك ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضة الاسبعة وأربعون درهما ناصرية من الذهب الاجرم واحد صوري ماعلمت وزنه وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياه

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قدعزم على التوجه الي دمشق ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد

وكان رحمه الله يعطى فى وقت الضيق كما يعطي فى حال السعة .وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيأ من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه وسمعته يقول فى معرض حديث جرى يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب فكانه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالي

وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب فما سمعته قط يقول اعطينا لفلان . وكان يعطي الكثير و يبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيأ . وكان رحمه الله يعطي و يكرم اكثر مما يعطي وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت وماسمعته قط يقول قدزدت مرارا فكم أزيد

واكثر الرسائل كانت تكون فى ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة مايطلبون ولاأخجل منه من كثرة ماأطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته فى ذلك وماخدمه أحدالا وأغناه عن سؤال غيره

(وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها) فلا تطمع فيها حقيقة أصلا وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى قد تجاربنا عطاياه فحصرنا عددماوهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر اللهم انك ألهمته الكرم وأنت أكرم منا فتكرم عليه برحمتك ورضوانك ياأرحم الراحمين

ذكر شجاعته قدس الله روحه

(روى) عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الشجاعة ولو علي قتل حية . ولقد كان رحمه الله تعالي من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته يعطي دستوراً في أوائل الشتا ويبقي في شرذمه يسيرة فى مقابلة عددهم الكثير وقدسألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح عن عددهم فقال الترجمان عنه انه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان ايضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور فلما اشرفنا عليه

تحازرناه فحزرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أوقال عكس ذلك قات فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا نعلم وما رجع من هذا العالم الا الاقل

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة او مرتين اذا كنا قريبا منهم . ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس وهو لا يزداد الا قوة نفس

وكان رحمه الله تعالى اذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة الي الميسرة ويرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله . ولقد قريء عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك اني قلت له قد سمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فان رأى المولي أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا فأذن فى ذلك فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف اخرى

وما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الاقسام كلها و يرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتي القلب ورجاله ووقع الكؤس والعلم وهو رضى الله عنه ثابت القدم فى نفر يسير حتي انحاز الي الجبل يجمع الناس و يردهم و يخجلهم حتي يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك

اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الي أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة في الصلح وظهر ذلك لما أبدت الاقضية الالهية والاقدار مافي مكنونها . وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط وتتراءى الناران ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون مناصوت الاذان الي ان انقضت الوقعة علي أحسن حال وأيسره قدس الله روحه ونور ضريحه

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالي والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ونصوص الجهاد كثيرة . ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ماأنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر في يمينه. ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولي علي قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث الا فيه ولا نظر الا في آلته ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما . وكان الرجل اذا أراد ان يتقرب اليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه

آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي فى فضله وشرحت غريبها. وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتي اخذه منه ولده الملك الافضل عز نصره ولأحكين عنه ما سمعته منه وذلك انه كان قد أخذ كوكب فى ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأعطى العسكر دستورا وأخذ عسكر مصر فى العود الي مصر وكان مقدمها أخاه الملك العادل عز نصره فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس الشريف حرسه الله تعالى وسرنا فى خدمته. ولما صلي العيد فى القدس وقع له أن يمضى الي عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ويرتب أحوالها فاشاروا عليه على ان يفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبقى فى عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت رحمه الله وودع اخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا فى خدمته الي الساحل طالبي عكا. وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديدا وموجه كالجبال كما قال تعالى وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أني لو قال لي ان جزت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخسفت رأى من ركب البحر رجاء دينار أودرهم واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر فبينا انا فى ذلك إذ التفت الي رحمه الله. وقال اما احكي لك شيئا فى نفسي انه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الي جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان خطر لى وقلت له ليس فى الارض اشجع نفسا من المولي ولا أقوي منه نية فى نصرة دين الله

تعالى فقال فكيف فقلت أما الشجاعة فلان مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله . وأما نصرة دين الله فهو ان المولي ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص فى الارض حتى تطهر جميع الارض منهم واستأذنت ان أحكى له ما كان خطر لى فحكيت له ثم قلت ماهذه الا نية جميلة ولكن المولى يسير فى البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتتين فقلت الموت فى سبيل الله فقال غاية مافى الباب أن أموت أشرف الميتتين فانظر الى هذه الطوية ما أطهرها والى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه اللهم انك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك وجاهد رجاء رحمتك فارحمه

﴿ صبره واحتسابه رحمة الله عليه ﴾

قال الله سبحانه وتعالى ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم . ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه الي ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس وانما يكون منكيا على جانبه ان كان بالخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب يطوف على الاطلاب صابرا على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل وأنا أتعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل وهذه عناية ربانية *

ولقد مرض رحمه الله ونحن على الخرنوبة وكان قد تأخر عن تل الحجل

بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعا في ان ينالوا شيأ من المسلمين وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل فامر رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة . وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً فاذن له أن يتأخر مع الثقل وأقام هو ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجعل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عز نصرهما في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبهم واول ما نزل من التل احضر بين يديه أفرنجي قد أسر من القوم فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وإبائه عنه وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديرا الى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الى أن دخل الليل ثم امر العساكر المنصورة أن عادت الى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح وتأخر هو ونحن في خدمته الى قمة الجبل فضربت له خيمة لطيفة وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر واحدقت بالعدو ورحل العدو عائدا الى خيامهم من الجانب الغربي من النهر وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بايديهم الاعلام والبيارق لا غير فيظن الرائي لها عن بعد

ان تحتها خلقا عظيما ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتي لايبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ونزلوا عند الجسر وكان الافرنج متي نزلوا الي الارض آيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة وبقي رحمه الله فى موضعه العساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الي آخر النهار ثم امرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم وعدنا الي منزلنا فى الليلة الماضية وعاد العسكر فى الصباح الى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو ورحل العدو وسار على مامضى من القتل والقتال حتى دنا الى خيامه وخرج اليه منها من أنجده حتي وصلوا الى خيامهم .

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والي أي غاية بلغ هذا الرجل. اللهم انك الهمته الصبر والاحتساب ووفقته له فلا تحرمه ثوابه ياأرحم الراحمين.

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولدله بالغ يسمي اسماعيل فوقف علي الكتاب ولم يعرف احدا ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوي أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه.

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لاننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل فى خدمته قدس الله روحه في ألذ مفاكهة وأرغد عيش والرسل تتواصل تخبره بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني حتى أتي الصباح وقد فرغ منها ولم يبق الا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالي وأشدها بردا ومطرا

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن اخيه ونحن في مقابلة الافرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير فاحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين وامر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديداً حتى ابكانا من غير ان نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفي تقي الدين فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت الي نفسي فقلت استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا اين وفيم انتم واعرضوا عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله واخذ يكررها ثم قال لا يعلم احد واستدعي بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو الي يافا وعدنا نحن الى النطرون وهو مقر ثقلنا

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة باولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى اللهم ان ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه وارحمه *

(ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله)

قال الله سبحانه وتعالى والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. لقد كان متجاوزا قليل الغضب ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج الي عكا يسر الله فتحها وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة وانا في خدمته نقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه * ولقد قرأ على كتابا مختصر التصنيف الرازي يشتمل على الارباع

الاربعة من الفقه ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على
النهوض فقيل له ان وقت الصلاة قد قرب فعاد الي الجلوس وقال نصلي وننام
ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد اخلا المكان الا ممن لزم فتقدم اليه
مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن
ضجران اخرها ساعة فلم يفعل وقدم القصة الي قريب من وجهه الكريم
بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال
رجل مستحق فقال يوقع المولي له فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه
الله جالسا في باب الخركاه بحيث لا يستطيع احد الدخول اليها والدواة في صدرها
والخركاه كبيرة فقال له المخاطب هذه الدواة في صدر الخركاه وليس لهذا معني الا
امره اياه باحضار الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله لقد صدق
ثم امتد على يده اليسري ومد يده اليمني فاحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالي
في حق نبيه صلى الله عليه وسلم وانك لعلي خلق عظيم وما ارى المولى الا قد
شاركه في هذا الخلق فقال ما ضرنا شيئا قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت
هذه الواقعة لآحاد الناس وافرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر ان يخاطب احدا
هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع اجر المحسنين
ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر
لذلك ولقد نفرت يوما بلغتي من الجمال وأنا راكب في خدمته فزحمت وركه حتى
ألمته وهو يتبسم رحمه الله . ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الى
القدس الشريف وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت
جميع ما كان عليه وهو يتبسم واردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني *
ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع

ويلقى ذلك بالنشر والقبول * وهذه حكاية يندر أن يسطر وذلك انه
كان قد اتجه اخو ملك الافرنج خذلهم الله الى يافا فان العسكر كان قد رحل
عنهم وبعد وتراجع الى النطرون وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان
للمجد وثلاث معتادة وجمع رحمه الله العسكر ومضي الي قيسارية يلتقى
نجدتهم عساه يبلغ منها غرضاً وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها
الانكتار ومعه جماعة فجهز معظم من كان عنده فى المراكب الي قيسارية
خشية على النجدة ان يتم عليها أمر وبقى الانكتار فى نفر يسير لعلمهم ببعده
رحمه الله عنهم وبعد العسكر * ولما وصل رحمه الله الي قيسارية ورأى
النجدة قد وصلت الى البلد واحتمت به وعلم انه لاينال منهم غرضه
سري من ليلته فى أول الليل الي آخره حتى أتي يافا صباحاً والانكتار فى
سبعة عشر فارساً وثلثمائة راجل نازلا خارج البلد فى خيمة له فصبحه
العسكر صباحاً فركب الملعون وكان شجاعا باسلا صاحب رأي فى الحرب
وثبت بين يدى العسكر ولم يدخل البلد فاستدار العسكر الاسلامي بهم الا
من جهة البحر وتعبي العسكر تعبية القتال وأمر السلطان العسكر بالحملة
انتهازا للفرصة فأجابه بعض الاكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير
فى اقطاعه فعطف رحمه الله عنان فرسه كالمغضب لعلمه أنهم لا يعملون فى ذلك
اليوم شيأ وتركهم وانصرف راجعاً وأمر بخيمته التى كانت منصوبة ان قلعت
وانفضوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة * ولقد حكي
لى ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه فى ذلك اليوم حتى أنه لم
يتجاسر أن يقع فى عينيه مع أنه حمل فى ذلك اليوم وأوغل ولم يزل سائرا حتي
نزل بسازور وما من الامراء الا من يرعد خفية ومن يعتقد أنه مأخوذ

مسخوط عليه قال ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خفية منه حتي استدعاني قال فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة فقال اطلبوا الامراء حتى يأكلوا شيأ قال فسري عني ما كنت أجده وطلبت الامراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والامن والسرور وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلا فانظر الي هذا الحلم الذي لا يتأتي في مثل هذا الزمان ولا يحكى عمن تقدم من أمثاله رحمة الله عليه

﴿ ذكر محافظته على أسباب المروءة ﴾

قال النبي صلي الله عليه وسلم بعثت لأتمم مكارم الاخلاق وكان صلي الله عليه وسلم اذا صافحه الرجل لا يترك يده حتي يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك . ولقد كان السلطان كثير المروءة ندى اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يري أن يفارقه الضيف حتي يطعم عنده ولا يخاطبه بشيء الا وينجزه وكان يكرم الوافد عليه وان كان كافراً . ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به الا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح فى شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائه عند منصرفه من القدس الي دمشق عرض له فى الطريق وطلب منه شيأ فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه واكرمه وأكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه

وكان يكرم من يرد عليه من المشائخ وأرباب العلم والفضل وذوي الاقدار وكان يوصينا بان لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشائخ المعروفين حتي يحضرهم عنده وينالهم من أحسانه . ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الاقدار وأبوه صاحب توريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ولما قضي لبانته منه ورأي آثار السلطان رحمه الله فيه وقع له زيارته فوصل الينا الي المعسكر المنصور فما أحسست به الا وقد دخل علي فى الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة فعرفت السلطان بذلك فى ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروي عنه حديثا ثم انصرفنا وبات عندى فى الخيمة فلما صليت الصبح أخذ يودعني فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قد قضيت حاجتى منه ولا عرض لى فيما عدا رؤيته وزيارته وانصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه وقال كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان عسه منا وشدد النكير على فى ذلك فما وجدت بدا من أن اكتب كتابا الي محيي الدين قاضى دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبره فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضى مثل ذلك فما أحسست به الا وقد عاد الي فرحب به السلطان وانبسط معه وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركبا لائقا وثيابا كثيرة

يحملها الى بنيه وأتباعه وجيرانه وانصرف عنه وهو أشكر الناس واخلصهم دعاء لايامه *

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي قد اصابه كرب بحيث أنه ظهرت عليه امارات الخوف والجزع فقال للترجمان من أي شيء يخاف فأجري الله علي لسانه أن قال كنت أخاف قبل ان أري هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ماأرى الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه ولقد كنت راكبا في خدمته في بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكي ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة استغيث الي بكرة النهار فقال لي الملوك السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فأخرجوني اليك وما أعرف ابنتي الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الي سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتي وصل الفارس والصغيره على كتفه فما كان الا ان وقع نظرها عليها خرت الي الارض تعفر وجهها في التراب والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ماتقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم *

وكان لايرى الاساءة الي من صحبه وان أفرط في الخيانة ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب

شيأ سوى أن صرفهم من عملهم لاغير *

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الافرنج بالساحل لما أسرهما في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها ان شاء الله تعالى وكان قد أمر باحضارهما وكان ارناط هذا اللعين كافراً عظيما جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث الهدنة فقال قولوا لمحمدكم يخلصكم فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه فلما أمكنه الله منه فى ذلك اليوم قوى عزمه على قتله وفاء بنذره فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش فاحضر له قدحا من شراب فشرب منه ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي فقصد رحمه الله أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره وأخذ عكا وأخرج الاسري كلهم من ضيق الاسر وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها الي بلده وأهله . هكذا بلغني على ألسنة جماعة لاني لم أحضر هذه الواقعة *

وكان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظا لانساب العرب ووقائعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم حافظا لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره *

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بخير السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد الا الخير وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط * وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه وجبر مصابه وان كان له من اهله كبير يعتمد عليه سلمه اليه والا أبقى له من الخير مايكف حاجته وسلمه الي من يعتنى بتربيته ويكفلها.

وكان لا يري شيخا الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه ولم يزل علي هذه الاخلاق الى أن توفاه الله الى مقر رحمته ومكان رضوانه

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة وما سطرت الا ما شاهدته أو أخبرنى الثقة به وحققته وهذا بعض ما اطلعت عليه فى زمان خدمتي له وهو يسير فيما اطلع عليه غيرى ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الاديب فى الاستدلال على طهارة تلك الاخلاق والخلال *وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن فى القسم الثانى من الكتاب فى بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها قدس الله روحه . ونور بنور رحمته ضريحه

﴿ القسم الثاني فى بيان تقلبات أحواله وفتوحاته فى تواريخها ﴾

ذكر حركته الى مصر فى الدفعة الاولى صحبة عمه أسد الدين *سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه انسان يقال له الضرغام وكان يروم منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولي على المكان وولى الوزارة. وكانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت بعسكر

وزيرهم وهو ملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصدا خدمة نورالدين ابن زنكى مستصرخا به مستنصرا علي أعدائه به فكره فتقدم نورالدين الي أسدالدين شيركوه بالخروج الى مصر المحروسة قضاء لحق الوافد المستصرخ وحفظا للبلاد وتطلعا الي أحوالها وذلك فى شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فتأهب أسد الدين شيركوه وسار الي مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره اليه وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه وساروا حتى وصلوا الي مصر وشاور معهم فى الثاني من جمادى الآخر سنة ثمان المذكورة . وكان لوصولهم الي مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاور على خصمه وأعاده الي منصبه ومرتبته وقرر قواعده واستقرأمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس فى قلبه الطمع فى البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال * تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال * وكان ابتداء رحلته عنها متوجها الي الشام فى السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة . وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورأيه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فاقام بالشام مدبرا لامره مفكرا فى كيفية رجوعه الي البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكى الى سنة اثنتين وستين وخمسمائة

﴿ذكر عودته الى مصر فى الوقعة الثانية وهى معروفة بوقعة البابين﴾

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور فداخله الخوف علي البلاد من الاتراك وعلم أن أسد الدين قد طمع فى البلاد وأنه

لا بد له من قصدها فكاتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون البلاد ويمكنهم تمكينا كليا ويعينونه علي استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر ان ملكها الكفار واستولوا علي البلاد كلها فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر وألزم السلطان رحمه الله المسير معه علي كراهية منه لذلك. وكان توجههم في أثني عشر ربيع الاول سنة أثنين وستين وخمسمائة وكان وصولهم الي البلاد المصرية مقارنا لوصول الافرنج اليها واتفق شاور مع الافرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الافرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين وكان سبب عود الافرنج ان نور الدين جرد العساكر الي بلاد الافرنج وأخذ المنيظرة وعلم الافرنج بذلك فخافوا على بلادهم وعادوا. وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الافرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الاهوال . وما عاد حتي صالح الافرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر وعاد الى الشام فى بقية السنة وقد انضم الى قوة الطمع فى البلاد شدة الخوف عليها من الافرنج لعلمه انهم قد كشفوها كما كشفها وعرفوها من الوجه الذي عرفها فأقام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره الي شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك

﴿ ذكر دعوه الى مصر فى الدفعة الثالثة وهى التى ملكوها فيها وجري ماجرى فى شهور سنة أربع وستين وخمسمائة ﴾

ملك نور الدين قلعة المنيظرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب قلعة أكاف بالبرية . وفي رمضان منها اجتمع نور الدين واخواه قطب الدين

وزين الدين بحماه للغزاة وساروا الي بلاد الافرنج فخربوا هونين في شوال منها . وفي ذى القعدة كان عود أسد الدين من مصر . وكان سبب ذلك أن الافرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا الى قصد البلاد * أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يسر بنفسه خوفا على البلاد من الافرنج ولانه قد حدث نظره الى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين ابن بكتكين فانه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وتسلم ما كان في يده من الحصون الي قطب الدين ماعدا أربل فانها كلها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله فحدث لنور الدين الى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر . وأما أسد الدين فبسيفه وملكه وأهله ورجاله ولقد قال لي السلطان قدس الله روحه كنت اكره الناس للخروج في هذه الواقعة وماخرجت مع عمي باختيارى وهذا معني قوله تعالي وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . وكان شاور لما أحس بخروج الافرنج الي مصر على تلك القاعدة أنفذ الي أسد الدين يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا . وكان وصولهم الى مصر في أثناء ربيع الاول سنة أربع وستين وخمسمائة * ولما علم الافرنج وصول أسد الدين الي مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين . وأقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور في الاحيان . وكان وعدهم بمال مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيئا وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد وعلم أن الافرنج متي وجدوا فرصة أخذوا البلاد وترددهم اليها في كل وقت لا يفيد وان شاور يلعب بهم تارة وبالافرنج تارة أخري

وعلموا أنه لا سبيل الي الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمعوا أمرهم علي قبضه ان خرج اليهم وكانوا هم يترددون الي خدمته دون أسد الدين وهو يخرج فى بعض الاحيان الي أسد الدين يجتمع به. وكان يركب علي قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم فلم يتجاسر علي قبضه من الجماعة الا السلطان بنفسه . وذلك أنه لما سار اليهم تلقاه راكبا وسار الي جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على اصحابه ففروا ونهبهم العسكر وقبض علي شاور وانزل الي خيمة مفردة وفى الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم فى تقرير قاعدة فيمن قوي منهم علي صاحبه فحزت رقبته وأنفذ رأسه اليهم وانفذ الي اسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيراً وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر سنة اربع وستين وخمسمائة ودام آمرا ناهيا والسلطان رحمه الله مباشر الامور مقرر لها وزمام الامر والنهى مفوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رايه وسياسته الي الثانى والعشرين من جمادي الآخرة من السنة المذكورة

﴿ ذكر وفاة أسد الدين ومصير الامر الى السلطان ﴾

وذلك ان اسد الدين كان كثير الاكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وتتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة وفوض الامر بعده الى السلطان واستقرت القواعد واستتبت الاحوال علي احسن نظام وبذل المال . وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله عليه فتاب من الخمر واعرض عن اسباب اللهو وتقمص بلباس الجد

والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد الا جداً الي أن توفاه الله الى رحمته * ولقد سمعت منه يقول لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لانه أوقع ذلك في نفسي * ومن حين استتب له الامر مازال يشن الغارات علي الافرنج الى الكرك والشوبك وبلادها وغشى الناس من سحائب الافضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الايام هذا كله وهو وزير متابع القوم ولكنه مقو لمذهب السنة غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً * ولا يعدم وافداً * ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب من سنة أربع وستين *

ذكر قصد الافرنج دمياط حرسها الله تعالى

ولما علم الافرنج ما جري من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الامر في الديار المصرية خافوا أن يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الافرنج والروم جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع إفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكا لنور الدين يسمى خلطخ العلم دار وذلك في ربيع الاخر منها * ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج وبلغه نزولهم علي دمياط قصد شغل

قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها فى شعبان من هذه السنة فقصده افرنج
الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر ثم بلغه وفاة مجد الدين بن
الداية بحلب وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لانه
كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي أخربت
كثيراً من البلاد المذكورة فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه
بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة
وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما علم السلطان
شدة قصد العدو دمياط انفذ الى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان
والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر
والآلات وابعاد العدو عنهم ان نزل عليهم ثم نزل الافرنج فى التاريخ المذكور
واشتد زحفهم عليها وقتالهم وهو يشن الغارات عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم
من داخل ونصر الله المسلمين وأيدهم وحسن قصدهم فى نصر دين الله
وأسعدهم وأنجدهم حتى بان للافرنج الخسران . وظهر على الكفر الايمان .
ورأوا أنهم ينجون برؤسهم . ويسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائبين خاسرين
بحرقت مناجيقهم ونهبت وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد بحمد الله ومنه
عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فل حدهم * واستقرت قواعد السلطان *

ذكر طلبه والده

ثم أنفذ فى طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور وتجري القصة
مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلاة الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء أجمعين
*فوصل والده نجم الدين اليه فى اثناء جمادي الاخري من سنة خمس وستين

وسلك معه من الادب ما كان عادته وألبسه الامر كله فابي أن يلبسه وقال يا ولدي ما اختارك الله لهذا الامر الاوأنت كفؤله * ولا ينبغي أن يغير موقع السعادة فحكمه في الخزائن بأسرها ولم يزل السلطان وزيرا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فانه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين وسار منها الى نصيبين فأخذها في بقية الشهر واخذ سنجار في ربيع الآخر منها ثم قصد الموصل وقصد ان لا يقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد وسار حتي خيم قبالة الموصل علي تل يقال له الحصن وراسل ابن اخيه عز الدين غازى صاحب الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل في ثالث جمادى الاولى وقرر صاحبها فيها وزوجه ابنته وأعطى عماد الدين ابن اخيه سنجار وخرج من الموصل قاصداً نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة

(ذكر موت العاضد)

وكان موته في يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك للسلطان وكان خطب لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حي وكانت الخطبة ابتداؤها للمستضيء بأمر الله واستمرت القواعد على الاستقامة وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه شيئاً وشرع السلطان في التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الامر لذلك وتقرير قواعده * وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الي خدمته وكانت غزاته عرفا واخذها في المحرم سنة سبع وستين

ولم يزل على قدم بسط العدل ونشر الاحسان واقامة الاحسان على الناس الى سنة ثمان وستين فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك وانما بدأ بها لانها كانت اقرب اليه وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن ان تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فاراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج قاصدا لها فحاصرها وجرى بينه وبين الافرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشىء فى تلك الواقعة وحصل ثواب القصد * واما نور الدين فانه فتح مرعش فى ذى القعدة من هذه السنة واخذ بهسنا فى ذى الحجة

(ذكر وفاة والده نجم الدين)

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته . وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس وكان رحمه الله شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت الا من وقوعه عن ظهر الفرس وكانت وفاته فى شهور سنة تسع وستين ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم وكان بلغه أن باليمن انسانا استولى عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمى بعبد النبي بن مهدي ويزعم أن ينتشر ملكه فى الارض كلها ويستتب الامر له فرأي أن يسير اليها أخاه الاكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه وكان كريما أريحيا حسن الاخلاق سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمه وحسن أخلاقه وترجيحه على نفسه . وكان توجهه اليها فى أثناء رجب سنة تسع

وستين فمضى اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجى الذى كان بها واستولي على معظمها وأعطي وأغني خلقاً كثيراً .

﴿ذكر وفاة نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله﴾

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضاً عجز الاطباء عن علاجها وتوفى يوم الاربعاء في الحادى والعشرين من شوال سنة تسع وستين وذلك فى قلعة دمشق وأقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل * ولقد حكى لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده وكنت وحدي أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

﴿ذكر منافقة الكنديأسوان وذلك فى شهور سنة تسع وستين﴾

والكنند انسان مقدم من المصريين كان قد نزح الى أسوان فاقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية وكان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ماتستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوص واعمالها وانتهى خبره الى السلطان فجرد له عسكرا عظيما شاكي السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين وساربهم حتي أتي القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم وذلك فى السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك واستمرت أموره ولله الحمد والمنة * .

﴿ ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى ﴾

وذلك أن الافرنج لما علموا تغيرات الاحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع فى البلاد وجردوا عساكرهم فى البحر وكانوا فى ستمائة قطعة ما بين شاني وطرادة وبطسة وغير ذلك . وكانوا فى ثلاثين ألفا على ما ذكر ونازلوا الثغر وذلك فى أثناء صفر فى السابع منه من هذه السنة وهى سنة سبعين فأمده السلطان بالعساكر المنصورة وتحرك وأدخل الله فى قلوبهم من الخوف والرعب مالم يمكنهم الصبر معه وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديداً وعصمه الله منهم * ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم وآلتهم فخرج أهل البلد الى نهبها واحراقها وكان أمراً عظيما ومن أعظم النعم على المسلمين وأمارة كل سعادة *

(ذكر خروج السلطان الي الشام وأخذه دمشق)

وأما نور الدين فانه خلف ولده الملك الصالح اسماعيل وكان بدمشق . وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين على وشاذبخت . وكان قد حدثته نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق الي حلب فوصل ظاهرها ثاني المحرم ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين للقائه فقبض على سابق الدين . ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض علي شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن . وفى ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لانهم تولوا ذلك * ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل

ندفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام فتجهز بجمع كثير من العساكر وخلف فى الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرها وخاف بعضهم من بعض وقبض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك وسبباً لتغيير قلوب الناس عن الصبي فاقتضر الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ووصل البلاد مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره ويرب حاله فيقوم له ما أعوج من أمره فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ودخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها. وكان أول دخوله الى دار أبيه واجتمع الناس اليه وفى جوابه وأنفق فى ذلك اليوم فى الناس مالا طويلا وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه فى ملكها فلم يلبث أن طلب حلب فنازل حمص فأخذ مدينتها فى جمادى الاولى سنة سبعين ولم يشتغل بقلعتها وسار حتى أتى حلب ونازلها فى يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهى الوقعة الاولى

﴿ ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين الى لقائه ﴾

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى علم ان الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف أنه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه فى الملك وتعدى الامر اليه فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه ووده عن البلاد. ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب

مستهل رجب من السنة المذكورة عائدا الى حماه وسار الى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ثم وصل عز الدين الي حلب وانضم اليه من كان بها من العسكر وخرجو بجمع عظيم . ولما عرف هو بسيرهم سار حتي وافاهم فى قرون حماه وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر . والمقصود الاوفر . والقضاء يجرالى أمورهم بما لا يشعرون . وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله فانكسروا بين يديه وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضا . ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهى الدفعة الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين وذلك في أواخر هذه السنة

﴿ ذكر مسير سيف الدين بنفسه ﴾

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله فى طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء الي السلطان واعتصم بذلك واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف علي الاخذ فبلغه وقوع هذه الوقعة نخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله الي الصلح فصالحه ثم سار من وقته الي نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى أتي الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ووصل كمشتكين اليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها الي العود مرارا حتي استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح الى

لقائه بنفسه فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم امره بالعود الى القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج الى خدمته في كل يوم وصعد القلعة جريدة وا كل فيها خبزا ونزل وسار راحلا الى تل السلطان ومعه الديار البكرية وجمع كثير والسلطان قد أنفذ فى طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدبيرهم وهم لا يشعرون أن فى التأخير تدبيرا حتي وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتي قرون حماء فبلغهم أنه قارب عسكره فاخرجوا اليزك وجهزو من يكشف الاخبار فوجدوه قد وصل جريدة الى جناب التركمان وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه فى تلك الساعة ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولا فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال وأصبح القوم على مصاف وذلك فى بكرة الخميس العاشر من شوال سنة احدى وسبعين فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين فانه كان فى ميمنة سيف الدين وحمل السلطان عليه بنفسه فانكسر القوم واسر منهم جمعا عظيما من كبار الامراء منهم فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم واطلقهم وعاد سيف الدين الى حلب المحروسة فاخذ منها خزانة وسار حتى عبر الفرات وعاد الى بلاده وامسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل فى بقية ذلك اليوم فى خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ماكان عليه والمطابخ قد عملت ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطي خيمة سيف الدين عز الدين فخر وشاه وسار الي منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور . وسار حتي نزل قلعة اعزاز يحاصرها وذلك فى

رابع ذي القعدة سنة احدي وسبعين وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ولم يفل ذلك عزمه واقام عليها حتى أخذها وذلك فى رابع عشر ذي القعدة من السنة وسار حتي نزل علي حلب فى سادس عشر منه فاقام مدة ثم سار عنها فاخرجوا اليه ابنة لنور الدين صغيرة وسألت منه اعزاز فوهبها اياها * وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة أخوه من اليمن الي دمشق واقام بها مدة ثم عاد الى الديار المصرية وتوفى باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعون * ثم ان السلطان عاد الي الديار المصرية ليتفقد احوالها ويقرر قواعدها وكان مسيره اليها فى ربيع الاول من شهور سنة اثنتين وسبعين واستخلف اخاه شمس الدولة بدمشق فاقام رحمه الله بها يقرر قراعدها ويسد خللها وأراح العسكر ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الاولى سنة ثلاث وسبعين

﴿ ذكر كسرة الرملة ﴾

وكان مقدم الافرنج البرنس ارناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيراً بها من زمن نور الدين وجري خلل فى ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكي السلطان صورة الكسرة في ذلك اليوم وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ولما قرب العدو رأي بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الي جهة الميسرة والميسرة الى جهة الميمنه ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بارض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج وقدر الله كسرتهم فانكسروا كسرة عظيمه ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا واسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان

وهنا عظيما جبره الله بوقعة حطين المشهورة ولله الحمد *

وأما الملك الصالح فانه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم اليه فلم يفعل فقتله . ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك فى جمادى الاخرى سنة ثلاث وسبعين وقابل عسكر الملك الصالح العساكر الافرنجية * ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج سلموها الى الملك الصالح فى العشر الاواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الملك الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم الي جانب السلطان حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالد فاخرج اليه العسكر وذلك فى عاشر المحرم سنة ست وسبعين ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل وكانت وفاته فى ثالث صفر من هذه السنة وولى مكانه أخوه عز الدين مسعود فى الخامس منه وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية

﴿ذكر عود السلطان الي الشام﴾

ولما عاد السلطان بعد الكسرة الي الديار المصرية وأقام بها ريثما لم الناس شعثهم وعلم بتخبط الشام عزم على العود اليه وكان عوده للغزاة فوصله رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث اليه من الارمن فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل بقره حصار وأخذ عسكر حلب فى خدمته لانه قد اشترط فى الصلح فاجتمعوا على النهر الازرق بين بهنسة وحصن منصور وعبر منه الى النهر الاسود وطرف بلاد ابن لاون وأخذ منهم حصنا واخربه وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ثم راسله

قليج أرسلان فى صلح الشرقيين بأسرهم واستقر الصلح و .اف السلطان فى عاشر جمادى الاولي سنة ست وسبعين ودخل فى الصلح قليج أرسلان والمواصلة وديار بكر وكان ذلك على نهر سبخة سنخة وهو نهر يرمي الى الفرات وسار السلطان نحو دمشق

(ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين الى حلب)

وفى سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه فى تاسع رجب وثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه واستدعي الامراء واحدا واحدا وحلفو العز الدين صاحب الموصل وفى الخامس والعشرين منه توفى رحمه الله وكان لموته وقع عظيم فى قلوب الناس * ولما توفى سارعوا الى اعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك واعلامه بما جرى له من الوصية اليه وتحليف الناس له فسارع سائرا الى حلب مبادرا خوفا من السلطان وكان أول قادم من أمرائه الي حلب مظفر الدين ابن زين الدين وصاحب سروج ووصل معهما من حلف جميع الامراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة وفى العشرين منه وصل عز الدين الي حلب وصعد القلعة واستولي على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكوره *

(ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد)

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب الي سادس عشر شوال وعلم انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الي ملازمة الشام لاجل السلطان وألح عليه الامراء فى طلب الزيادات ورأوا أنفسهم انهم قد اختاروه وضاق عطنه وكان صاحب

أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام فرحل من قلعة حلب طالبا للرقة وخلف ولده ومظفر الدين بها وسار حتي أتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لاخيه على ذلك فى الحادى والعشرين من شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفى ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين الي قلعة حلب

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فانه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد الى الديار المصرية واستخلف ابن أخيه عز الدين فخر وشاه واليا ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على العود الى الشام خوفا على البلاد من الافرنج وبلغه أيضاً وفاة فخروشاه فاشتد عزمه . وكان وصوله الي دمشق فى سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ثم انشأ التأهب لغزاة بيروت فانه عبر على الافرنج فى عوده من مصر مكابرة من غير صلح فقصد بيروت ونزلها ولم ينل منها غرضاً واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ودخل الي دمشق وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الي الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله فاخذ فى التأهب لذلك فلما بلغ ذلك عماد الدين سير الي الموصل يشعره بالخبر ويستحث العساكر وسار السلطان حتى نزل على حلب فى ثامن عشر جمادي الاولي من هذه السنة وأقام ثلاثة أيام ورحل فى الحادى والعشرين يطلب الغزاة واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين وكان صاحب حران وكان قد استوحش من

جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ الى السلطان وعبر الي قاطع الفرات وقوى عزمه علي البلاد وسهل أمرها عنده ودخل الرها والرقة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور واقطعه *

ذكر نزوله علي الموصل

وكان نزوله عليه فى هذه الوقعة فى يوم الخميس حادى عشر شهر رجب وكنت اذ ذاك فى الموصل فسيرت رسولا الى بغداد قبيلا بأيام قلائل فسرت مسرعاً فى الدجلة وأتيت بغداد فى يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجداً بهم فلم يحصل منهم سوي الانفاذ الي شيخ الشيوخ وكان فى صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ويتلطف الحال معه ويسير الى بهلوان رسولا من الموصل يستنجدونه فلم يحصل من جانبه سوي شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم انه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة علي هذا الوجه ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعة وماحوله من البلاد واضعافه بطول الزمان فرحل عنها ونزل علي سنجار فى سادس عشر شعبان وأقام يحاصرها وكان فيها شرف ابن الدين قطب الدين وجماعة ويشتد عليه الامر حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها عنوة وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الى الموصل وأعطاها ابن أخيه تقى الدين ورحل عنها الى نصيبين

ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا اليه واستنجدوا به وطرحوا أنفسهم عليه فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرزم وسير الى عز الدين صاحب

الموصل أعلمه فخرج اليه وذلك فى الخامس عشر من شوال فسار حتي اجتمع به صاحب ماردين ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان وأرسل شاه أرمن بكتمر الي السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ فلم ينتظم بينهم حال ورحل السلطان الي عسكر شاه أرمن فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولي راجعاً الى بلاده وعاد عز الدين الى بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطلب بلد آمد فنزل عليها وقاتلها وأخذها فى ثمانية أيام وذلك فى أول محرم سنة تسع وسبعين وأعطاها نور الدين بن قره أرسلان . ومن على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الاموال وغيرها ثم سار يطلب الشام لقصد حلب . وفى هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة اعزاز وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فانه كان قد صار مع السلطان فى الثاني والعشرين من جمادى الاولي من السنة المذكورة وقاتل باشر وكان صاحبها ولد رم البارو قي قد صار مع السلطان فلم يقدر عليها وجرت غارات من الافرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى وتسلم السكرزين ثم عاد الي حلب

(ذكر عود السلطان الى الشام)

ولما عاد الى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها فى الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ثم سار طالباً حلب فنزل عليها في السادس والعشرين . وكان أول نزوله بالميدان الاخضر واستدعي العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم وقاتلها قتالا شديدا وتحقق عماد الدين انه ليس له قبل وكان قد ضرس من اقتراح الامراء وجبههم فأشار الى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان فى اعادة بلاده وتسلم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم

يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتي تم الامر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم وأذن فى تدبير أنفسهم وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين حرديك النوري وزين الدين فقعدوا عنده الي الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك فى السابع عشر من صفر وخرجت العساكر الى خدمته الى الميدان الاخضر ومقدمو حلب وخلع عليهم وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه والسلطان مقيم بالميدان الاخضر الي الثالث والعشرين من صفر وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه وشق عليه أمره ونه وجاس للعزاء وفى ذلك اليوم نزل عماد الدين الى خدمته وعزاه وتقررت بينهما قواعد وأنزله السلطان فى الخيمة وقدم له تقدمة سنية وخيلا جميلة وخلع على جماعة من أصحابه . وسار عماد الدين من يومه الي قرار حصار سائراً الي سنجاب وصعد السلطان قلعة حلب مسرورا منصورا . وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية وكان قد تخلف لاخذ ماتخلف لعماد الدين من قماش وغيره وكان قد أنفذ الى حارم من يستلمها ودافعهم الموالي وأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه خلف لهم وسار من وقته الى حارم فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولي فيها ابراهيم بن شرده وعاد الي حلب ودخلها في ثالث ربيع الال ثم اعطي العساكر دستوراً وسار كل منهم الي بلاده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها

﴿ ذكر غزاة عين جالوت ﴾

ولم يقم في حلب ألا الي الثاني والعشرين من ربيع الاخر وأنشأ عزما الي الغزاة فخرج فى ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق واستنهض العساكر فخرجوا

يتبعونه ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الاولي فاقام بها متأهبا الي السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة فاقام به تسعة ايام ثم رحل في ثامن جمادي الآخرة وسار حتى أتي الفؤاد وتعبى فيه للحرب وسار حتى نزل القصير فبات به وأصبح على المخاض وعبر وسار حتي اتى بيسان فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الاقمشة والغلال والامتعة بها فنهبها العسكر وغنموا واحرقوا ما لم يمكن أخذه وسار حتي اتي الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية نخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولي مملوك أسد الدين حتي يكشفوا خبر الافرنج فاتفق انهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووش فوصل اليه في بقية يوم الكسرة وهو العاشر من جمادى الآخرة فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر * ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر اليه ان الافرنج قد اجتمعوا في صفورية فرحلوا الى الفولة وهي قرية معروفة وكان غرضه المصاف فلما سمع بذلك تعبي للقاء ورتب الاطلاب ميمنة وميسره وقلبا وسار للقاء العدة وسار الافرنج طالبين المسلمين ووقعت العين في العين واخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة فواقعوا الافرنج وجري قتال عظيم وقتل من العدة جماعة وهم ينضم بعضهم الي بعض يحمي راجلهم فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ونزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا الى المصاف وهم لا

يخرجون لخوفهم من المسلمين فانهم فى كسرة عظيمة ولما رأى انهم لم يخرجوا رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف فرحل نحو الطور وذلك في السابع عشر من هذا الشهر فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة واصبح الافرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكصين فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمى النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم نزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين الى بلادهم فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم وكان قد نال منهم بالقتل والاسر وخربت عفربلا وقلعة بيسان وزرعين وهي من حصونهم المذكورة وخربت عليهم قرى عديدة فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الغوار وأعطى الناس دستورا من أثر المسير ثم سار هو حتى اتي دمشق فدخلها فرحا مسرورا فى يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر . فانظر الى هذه الهمة التي لم يشلغها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد فالله يحسن جزاءه فى الاخره كما وفقه الاعمال المرضية في الدنيا

(ذكر غزاة انشأها الى الكرك)

ثم انه اقام بدمشق الى ثالث رجب سنة تسع وسبعين وخرج مرارا نحو الكرك وكان قد سير الي الملك العادل وهو بمصر يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقائه وسار حتى أتى الكرك ووافاه الملك العادل عليها وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر وذلك فى رابع شعبان من هذه السنة وكان قد بلغ الافرنج خبر خروجه

فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ولما انتهى ذلك اليه سير الملك المظفر تقي الدين الي مصر وذلك في خامس عشر شعبان وفي السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك وتزحزح السلطان عنه بعد ان قاتله قتالا عظيما وعليه قتل شرف الدين برغش النور شهيدا

(ذكر اعطائه اخاه الملك العادل حلب)

ثم رحل السلطان مستصحبا اخاه الملك العادل معه الي دمشق لا يأسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان واعطى أخاه الملك العادل حلب بعد مقامه بدمشق الي ثاني يوم من شهر رمضان وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره وابن العميد في البلد وكان الملك الظاهر من أحب الاولاد الى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك كله وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج من حلب لما دخل الملك العادل هو ويازكج سائرين الى خدمة السلطان فدخل دمشق الثامن عشر من شوال فاقام في خدمة أبيه لا يظهر له الا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفي عن نظر والده وفي ذلك الشهر وردنا علي السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد توسلنا الي الخليفة الناصر لدين الله في انفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيعا الي السلطان فسيره معنا من بغداد وكان عزيز المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة وفي سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد اليه اذا كان عنده في معظم الايام

(ذكر وصولنا الى خدمة رسلا)

وكان الشيخ قد وصل الى الموصل وسار منها فى صحبة القاضي محي الدين ابن كمال الدين وكان بينهم صحبة من الصبا وكنت مع القوم وسرنا حتي اتينا دمشق وخرج السلطان الي لقاء الشيخ ونحن فى خدمته فلقيه عن بعد وكان دخولنا الي دمشق يوم السبت حادي عشر ذي القعده من هذه السنة ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع الى الاكرام والاحترام وأقمنا أياما نراجع في فصل حال فلم يتفق صلح فى تلك الوقعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان الي وداع الشيخ الي القصر واجتهد في ذلك اليوم أن ينقضى شغل فلم يتفق وكان الوقوف من جانب محي الدين فان السلطان اشترط أن يكون صاحبا اربل والجزيره على خيرتهما في الانتماء اليه أو الى الموصل فقال محي الدين لا بد من ذكرهما في النسخة فوقف الحال وكان مسيرنا سابع ذي الحجة وفى تلك الدفعة عرض على السلطان موضع البها الدمشقى بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال بوقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر لم أعرفه الا بعد خدمتى له واقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصل رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة فاستحلفه لنفسه في الانتماء اليه ورسول اربل وحلف لهما وسارا ووصل اليه أخوه الملك العادل رابع ذى الحجة فاقام عنده وعيد وتوجه الي حلب المحروسة

ذكر غزواة أخري الى الكرك

وصل ابن قره أرسلان نور الدين الي حلب ثامن عشر صفر سنة

ثمانين فاكرمه الملك العادل اكراما عظيما وأصعده الي القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق في السادس والعشرين منه. وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله * ولما بلغه وصول قره أرسلان خرج الي لقائه وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاه على عين الجسر بالبقاع وذلك في تاسع ربيع الاول ثم عاد الي دمشق وخلف نور الدين واصلا مع الملك العادل فتأهب للغزاة وخرج مبرزا الى جسر الخشب في منتصف ربيع الاول وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قره أرسلان الى دمشق فاقاما بها أياما ثم رحلا يلتحقان بالسلطان من رأس الماء طالبا للكرك وأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى تاسع عشر ربيع الآخر فوصل الي خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزائنه فسيرهم الي الملك العادل وتقدم اليه والى بقية العساكر بالوصول اليه الي الكرك فتتابعت العساكر الي خدمته حتي أحدقوا بالكرك وذلك في رابع جمادى الاولي وركب المناجيق على المكان وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضاً مع قره أرسلان * ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم الى الذب عن الكرك وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة الغفيرة فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة الي مصر. ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعبأ للقاء وأمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد وبقي العسكر جريدة ثم سار السلطان يقصد للعدو. وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ورحل منها الي موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله الي السادس والعشرين من جمادي الاولي

ثم رحلوا قاصدين الكرك فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم الى آخر النهار . ولما رأى قدس الله روحه تصمم الافرنج على الكرك أمر العساكر ان دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ولم يبق فيها الا حصناها وأخذوا جانين والتحقوا بالسلطان برأس الماء وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادي الاخري ومعه الملك العادل ونور الدين ابن قره أرسلان فرحاً مسروراً واكرمه واحترمه وأحسن اليه . وفى هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهم وفى الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قره أرسلان وأعطاه دستورا وأعطاه العساكر وفى ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا الي السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز علي أربل وانهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم

ذكر خروج السلطان الى جهة الموصل فى الوقعة الثانية

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد وتقدم الي العساكر فتبعته وسار حتى اتي حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة فى الثانى عشر من محرم سنة احدي وثمانين وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب أن يسير فى مقدمة العسكر الي رأس العين ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر . وفى السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسول فلم يقفه عليه وأنكره فأخذ منه قلعة حران والرها ثم اقام فى الاعتقال تأديبا الى

مستهل ربيع الاول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد اليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده الي قانونه فى الا كرام والاحترام ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها ثم رحل السلطان ثاني ربيع الاول الي رأس العين ووصله فى ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم ضرب المصاف معه أن اصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الاول عماد الدين بن قره ارسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين فالتقاهم واحترمهم ثم رحل من دنيسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيلان قريب الموصل يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة يحاصر الموصل فبلغ عمادالدين بن قرة أرسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستوراً طمعافي ملك أخيه فأعطاه دستوراً

﴿ ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط ﴾

ولما كان ربيع الآخر سنة احدي وثمانين توفى شاه أرمن صاحب خلاط وولي بعده غلامه بكتمر وهو الذى وصل رسولا الى خدمة السلطان يستجار فعدل وأحسن الي أهل خلاط وكان متصوفا فى طريقته فأطاعه الناس ومالوا اليه * ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز . فلما بلغه ذلك سير الي خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط اليه واندراجه فى جملته واعطائه ما يرضيه فطمع السلطان فى خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها وسير الي بكتمر الفقيه عيسي وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلته

الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جدا فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه ابنة له وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الي رسل السلطان وعادوا من غير زبدة * وكان السلطان قد نزل علي ميا فارقين فحاصرها وقاتلها قتالا ونصب عليها مجانيق وكان بها رجل يقال له الأسد وما قصر فى حفظها لكن الأقدار لا تغلب فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادى * ولما أيس من أمر خلاط عاد الي الموصل فنزل بعيدا عنها وهى الوقعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار وكان الحر شديدا فأقام مدة . وفى هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة واجتمع به فأعاده الى بلده ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضاً شديداً خاف من غائلته فرحل طالباً حران وهو مريض وكان يتجلد ولا يركب محفة فوصل وهو شديد المرض وبلغ الي غاية الضعف وأيس منه ورجف بموته فوصل اليه أخوه من حلب ومعه أطباؤه

ذكر صلح المواصلة معه

وكا سبب ذلك ان عز الدين أتابك صاحب الموصل سيرني الي الخليفة يستنجد فلم يحصل منه زبدة فلما وصلت من بغداد ورددت جواب الرسالة أيس من نجدة فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه فى ذلك الوقت فندبوني لهذا الامر وبهاء الدين الربيب وفوض الى امر النسخة التى حلف بها وقالوا امضيا مايصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا فى أوائل ذي الحجة فاحترمنا احتراما عظيما وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه وحلف فى يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين وكان

أخذها من سنجر شاه فأعطاها المواصلة وحلفته يمينا تامة وحلفت أخاه الملك العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنا معه وهو بحران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص وكانت وفاته يوم عرفة وجلس الملك العادل للعزاء * وفي تلك الايام كانت وقعة التركمان مع الاكراد وقتل بينهم خلق عظيم * وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان ابن الدكز وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة

ذكر عود السلطان الي الشام

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب وكان وصوله اليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وكان يوما مشهودا الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه فاقام بها أربعة أيام ثم رحل نحو دمشق ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة فمن عليه بحمص وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ثم سار يطلب جهة دمشق وكان دخوله اليها في ثاني ربيع الاول وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والاكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند فكتب الى عسكر حلب أن حاصروه * وفي ثاني جمادي الأولي وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها الى علم الدين سليمان ثم مضي الي خدمة السلطان * وفي سابع عشر وصل الملك الافضل الي دمشق ولم يكن قد رأي قبل ذلك الشام

ذكر مسير السلطان العادل الى مصر ووصول الملك الظاهر الى حلب

وذلك أن السلطان رأي ذهاب الملك العادل الي مصر فانه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ليزيل تفاويضها بذلك وهو على حران مريض وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الي دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب الملك العادل الى دمشق فخرج من حلب جريدة في الرابع والعشرين من ربيع الأول وسار حتى أتي دمشق فاقام بها في خدمة السلطان فجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير الي جمادي الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر وتسليم حلب وتسيير الصنيعة لاحضار أهله من حلب وكان الملك الظاهر أيده الله والملك العزيز بدمشق في خرمة والدهما فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر استقرت على ان يكون أتابك الملك العزيز وسلمه والده اليه يربي أمره وسلم الملك العادل حلب الى الملك الظاهر * ولقد قال لى الملك العادل انه لما استقرت عليه هذه القاعدة واجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما قلت للملك العزيز يامولاي ان السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك الي مصر وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغداً لا يخلون ممن يقول عني مالا يجوز ويخوفونك مني فان كان لك أذن تسمع فقل لى حتى لا أجيء فقال لا اسمع وكيف يكون ذلك * ثم التفت وقلت للملك الظاهر انا اعرف ان أخاك ربما يسمع في أقوال المفسدين وانا فمالي الا أنت متي ضاق صدري من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير * ثم ان الملك الظاهر سيره والده الى حلب ليعلمه ان حلب هي اصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا أتعب في طلبها ذلك الدأب * ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد المشرق وقنع منهم بالطاعة

والمعونة على الجهاد فسلمها اليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته فسار اليها حتي العين المباركة وسير فى خدمته الشحنة حسام الدين بشاره وواليا عيسى بن بلاشوا فنزل بعين المباركة وخرج الناس الي لقائه فى بكرة تاسع جمادى الاخري وصعد القلعة ضحوة نهار وفرح الناس به فرحا شديداً ومد علي الناس من جناح عدله . وافاض عليه وابل فضله * واما الملك العزيز والملك العادل فان السلطان قرر حالتهما وكتب الي الملك المظفر يخبره بسير الملك العزيز وهو صحبة عمه ويامره بالوصول الى الشام وشق ذلك عليه حتى أظهر للناس وعزم على المسير الى ديار الغرب الى برقا فقبح ذلك عليه جماعة من اكابر الدولة وعرفوه ان عمه السلطان يخرج من يده فى الحال والله اعلم بما يكون منه بعد ذلك فرأى الحق بعين البصيرة واجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل واصلا الي خدمة السلطان فسار السلطان الي لقائه وفرح بوصوله فرحا شديدا وذلك فى الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماة وسار اليها وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها فى السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد فى شوال من السنة المذكورة المباركة

(ذكر غزاة ابتدأها الى الكرك)

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم علي قصد الكرك فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق فى منتصف محرم فسار حتي نزل بارض نيطرة منتظرا اجتماع العساكر المصرية والشامية وامر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات علي ما فى طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك وأقام بارض الكرك حتي وصل الحاج الشامى الى الشام وأمنوا اغائلة العدو

ووصل قفل مصر الشتوي ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية وتاخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بارض الارمن من بلاد ابن لاون وذلك انه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيه بالملك وكان الملك المظفر بحماه وبلغ السلطان الخبر فامرهم بالدخول الى بلاد العدو واخماد ثائرتهم وسار الملك المظفر بعسكر حلب الي حارم فاقام بها ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بمهمل فعاد السلطان الي الشام ونزل بعشترا فى السابع عشر من ربيع الاول ولقيه ولده الملك الافضل ومظفر الدين ابن زين الدين وجميع العساكر . وكان قد تقدم الى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج ليتفرغ البال من العدو فى جانب واحد فصالحهم فى العشر الاواخر من ربيع الاول وتوجه الي حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة التى عزم عليها فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقين فى خدمته وهم عسكر الموصل مقدمتهم مسعود بن الزعفراني وعسكر ماردين فلقيهم السلطان فى العشر الاوسط من ربيع الآخر فاقرهم وأكرمهم في منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لامر قد عزم عليه علي تل يعرف بتل تسيل تيسل وتقدم فى اصحاب الميمنه بحفظ موضعهم والى اصحاب الميسرة بذلك والي القلب بمثله

(ذكر واقعة حطين المباركة على المؤمنين)

وذلك ان السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه فى الملك وتمكين الله اياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد الي اقامة قانون الجهاد فسير الي سائر العساكر واستحضرها واجتمعوا اليه بعشترا فى التاريخ المذكور

وعرضهم ورتبهم واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول فى نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب الي الاجابة فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب وكان بلغه أن العدو لما بلغهم انه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بارض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمي الصبيرة ورحل من هناك ونزل غربى طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا أن الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم وكان نزوله فى هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادى والعشرين فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب بحالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها فى ساعة من نهار وامتدت الايدى اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها . ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون اجابة الحمية فرحلوا من وقتهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج فسيروا الي السلطان من عرفه ذلك فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ولحق العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها وذلك فى أواخر الخميس الثاني والعشرين وحال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكي السلاح الى صبيحة الجمعة فى الثالث والعشرين فركب العسكران وتصادما وعملت الجاليشية وتحركت الاطلاب والتحم القتال واشتد الامر وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا وضاق الخناق بالقوم هذا وهم سائرون كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون * وقد أيقنوا بالويل والثبور * وأحست أنفسهم انهم

فى غد زوار القبور * ولم يزل الحرب يلتحم * والفارس مع قرنه يصطدم * حتى لم يبق الا الظفر * ووقع الوبال على من كفر * فحال بينهما الليل وظلامه وجري في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة . والامور الجسيمة . مالم يحك عمن تقدم وبات كل فريق فى سلاحه ينتظر خصمه فى كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض * وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض. حتى كان صباح السبت الذى بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه وعلمت كل طائفة ان المكسورة بينهما مدحورة الجنس معدومة النفس . وتحقق المسلمون آن من ورائهم الاردن ومن بين أيديهم بلاد القوم وان لا ينجيهم الا الله تعالي وكان الله قدر نصر المؤمنين ويسره *وأجراه على وفق ما قدره * فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد فالقى الله الرعب فى قلوب الكافرين . وكان حقا علينا نصر المؤمنين * وكان القومص ذكي القوم وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن تعبية(١) فهرب فى أوائل الامر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده . وأمن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام باهل الكفر والطغيان من كل جانب واطلقو عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقال له تل حطين وهى قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء فضايقهم المسلمون على التل واشعلوا حواليهم النيران وقتلهم العطش وضاق بهم الامر حتي كانوا يستسلمون للاسر خوفا من

(١) هكذا فى الاصل

القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفرى والبرنس أرناط وأخو الملك والبرنس هو صاحب الشوبك وابن الهنفرى وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار وأما الباقون من المقدمين فانهم قتلوا وأما الاذوان فأنهم قسموا الي قتيل وأسير ولم يسلم منهم الامن أسر وكان الواحد العظيم منهم يخلد الي الاسر خوفا على نفسه ولقد حكي لى من اثق به انه لقى بحوران شخصاً وحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم * فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم * أما القومص الذي هرب فانه وصل الي طرابلس وأصابته ذات الجنب فاهلكه الله بها . وأما مقدم الاسبتار والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة ابيهم . وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر انه اذاظفر به قتله وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافله من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالامان فغدربهم وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على انه نذر إن ظفر به قتله . ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان في دهليز الخيمة فأنها لم تكن نصبت والناس يتقربون إليه بالاسري ومن وجدوه من المقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسروراً لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك جفري شربة من حلاب بثلج فشرب منها وكان علي أشد حال من العطش ثم ناول بعضها البرنس أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته وكان علي عادة جميل العرب

وكريم أخلاقهم ان الاسير اذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك
جريا على مكارم الاخلاق ثم أمرهم بمسيرهم الي موضع عين لنزولهم فمضوا
واكلوا شيأ ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم واقعد
الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط وأوقفه على ما قال وقال له ها أنا
انتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل
النمجاة وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه الي النار
فأخذ ورمى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم
يشك أنه يثني به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا
الملوك * وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى ما جرى * وبات الناس في تلك
الليلة على أتم سرور . وأكمل حبور . ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له
والتكبير والتهليل حتي طلع الصبح في يوم الاحد وتسلم قدس الله روحه في
بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها الي يوم الثلاثاء . ثم رحل طالبا عكا
وكان نزوله عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها يوم الخميس
مستهل جمادي الاولي فاخذ واستنقذ من كان فيها من الاساري وكانوا
زهاء أربعة آلاف نفر واستولى على ما فيها من الاموال والذخائر
والبضائع والتجائر فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر في بلاد الساحل
يأخذون الحصون والقلاع ماكن المنيعة واخذوا نابلس وحيفا وقيسارية
وصفورية والناصرة وكان ذلك لخلوها عن الرجل بالفتك والاسر ولما
استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون اموالها وأساراها سار يطلب تبنين فنزل
عليها يوم الاحد ثاني عشر جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها
المناجيق وضيق عليها بالزحف الخناق وكان بها رجال ابطال شديدون في

ديهم فاحتاجوا الى معاناة شديدة ونصره الله عليهم وتسلمها ثامن عشر عنوة
وأسر من بقي بها بعد القتل ثم رحل منها الى صيدا فنزل عليها ومن الغد
تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها * ثم سار حتى اتى بيروت فنازلها فى
الثاني والعشرين فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الامر حتى أخذها
في التاسع العشرين وتسلم أصحابه حبيلا وهو على بيروت * ولما فرغ باله من
هذا الجانب رأي قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها
ومارسها لان العسكر كان قد تفرق فى الساحل وذهب كل انسان يأخذ
لنفسه شيئاً وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب وكان قد اجتمع
فى صور كل افرنجي بقى في الساحل فرآي قصد عسقلان لان أمرها كان
أيسر ونازلها في السادس والعشرين من جمادي الآخرة وتسلم في طريقه مواضع
كثيرة كالرملة وبينا والدارون وأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديداً
وتسلمها سلخ هذا الشهر وأقام عليها الى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين
والنطرون بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين
خمسة وثلاثون سنة فان العدو ملكها فى سبعة وعشرين من جمادي الاخرى
سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

(ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى)

ولما تسلم عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد
في قصده واجتمعت عليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد انقضاء
لبانتها من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله معوضاً أمره اليه منتهزاً
فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه صلى الله عليه وسلم بقوله من فتح باب
خير فلينتهز بانه لا يدري متى يغلق دونه وكان نزوله عليها فى الخامس عشر

من رجب سنـة ثلاثة وثمانين المباركة فنزل بالجانب الغربي وكان مشحونا بالمقاتلة والخيالة والرجالة * ولقد تحازر اهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ما عـدا النساء والصبيان * ثم انتقل رحمـه الله لمصلحة رآها الى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية * ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الامر الذي لا يندفع عنهم وظهرت لهم امارات نصرة الحق على الباطل وكان قد القى في قلوبهم الرعب مما جرى على ابطالهم ورجالهم من السبي والقتل والاسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخـذ علموا أنهم الى ما صاروا اليه صائرون . وبالسيف الذي قتل به اخوانهم مقتولون فاستكانوا وأخلدوا الى طلب الامان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسلمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلة كانت المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد . فانظر الي هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الى أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالي وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن ارباب الحرف والطرق وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور وارتفعت الاصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه . وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيما ونصر الله الاسـلام نصر عزيز مقتدر . وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن

كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو انثى ديناراً واحدا فمن أحضر القطيعة سلم نفسه والا أخذ أسيرا وفرج الله عمن كان أسيرا من المسلمين وكان خلقاً عظيما زهاء ثلاثة آلاف أسير واقام رحمه الله يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والعلماء وايصال من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور. ولقد بلغني انه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء وكان مئتى الف دينار وعشرين الف دينار وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان

﴿ ذكر قصده صور ﴾

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور وعلم انه إن اخر أمرها ربما اشتد فرحل سائراً اليها حتى عكا فنزل عليها ونظر في احوالها ثم رحل متوجها الي صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان وسار حتى أشرف عليها ونزل قريبا منها ينتظر وصول آلات القتال وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير الى ولده الملك الظاهر يستحضره وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل فقدم عليه فى الثامن عشر على تلك المنزلة وسر بوصوله سرورا عظيما * ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والسنائر وغير ذلك نزل عليها فى الثامن والعشرين وضايقها وقاتلها قتالا عظيما واستدعي اسطول مصر وكان يحاصرها من البحر والعسكر من البر وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقرر قواعده فاستدعاه فوصل اليه فى خامس شوال وسير من حاصر هونين فسلمت فى الثالث والعشرين من شوال

(ذكر كسرة الاسطول)

وذلك انه قدم على الاسطول انسان يقال له الفارس بدران وكان ناهضاً جلداً فى البحر وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن وكان قد اكد عليهم الوصية وأخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل فخرج أسطول الكفار من صور وكبسوهم وأخذوا المقدمين مع خمسة قطع وقتلوا خلقاً عظيما من الاسطول الاسلامي وذلك فى السابع والعشرين من شوال فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه وكان قد هجم الشتاء وتراكمت الامطار وامتنع الناس من القتال من شدة المطر فجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فاشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزأ من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعدادا جديداً فرأى ذلك رأيا ورحل عنها بعد ان رمى المنجنيقات وسيرها واحرق مالا يمكن ثقله وكان رحيله ثاني ذى القعدة من هذه السنة ففرق العساكر واعطاها دستوراً وسار كل قوم الى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين

(ذكر نزوله على كوكب)

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأي الاشتغال بالحصون الباقية لهم مما يضعف قلوب من فى صور وينهى أمرها به فاشتغل بذلك ونزل على كوكب في أوائل محرم وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل اليهم قوة فخرج الافرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفربلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخي

الجاولى واخذوا اسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه فانه كان قد أعطى العساكر دستورا وعاد اخوه الي مصر وولده الى حلب ولقى فى طريقه شدة من الثلج والبرد فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام يقاتلها مدة . وفى تلك المنزلة وصلت الي خدمته فاني كنت قد حججت سنه ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طستكين على ضرب الكوس والدبدبة فان امير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم وكان من أكبر أمراء الشام وكان كثير الغزاة فقدر الله ان جرح بعرفة يوم عرفة ثم حمل الى منى مجروحا ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلي عليه فى مسجد الخيف فى بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلا وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك السلطان فشق عليه ثم اتفق لي العود من الحج الى الشام لقصد القدس وزيارته والجمع بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فوصلت الي دمشق ثم خرجت الي القدس فبلغه خبر وصولى فظن أني وصلت من جانب الموصل فى حديث فاستحضرني عنده وبالغ فى الاكرام والاحترام . ولما ودعته ذاهبا الى القدس خرج لى بعض خواصه وابلغني تقدمه الى بأن أعود اتمثل في خدمته عند العود من القدس فظننت أنه يوصيني بمهم الى الموصل وانصرفت الى القدس يوم رحيله عن كوكب ورحل لانه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ الا بجمع العساكر عليه وكان حصن قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الي دمشق وكان دخوله اليها فى سادس ربيع الاول. وفى ذلك اليوم اتفق دخولى اليها عائداً من القدس وأقام بها خمسة ايام فكان له عنها ستة عشر شهرا وفى اليوم

الخامس بلغه خبر الافرنج انهم بجبيلا واغتالوها فخرج مسرعا ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير الى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب جبيلا فلما عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك . وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين الى حلب قاصدين الخدمة للغزاة فسار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل الفوقاني

(ذكر دخوله الساحل الاعلى واخذه اللاذقية وجبلة وغيرهما)

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ثم سير الى الملك الظاهر والملك المظفر ان يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكيه ليحفظ ذلك الجانب وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان فى هذه المنزلة ووصلت اليه بها على عزم المسير الى الموصل متجهزا لذلك فلما حضرت عنده فدح بى وأكرمني وكنت قد جمعت له كتابا فى الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها يجمع احكامه وآدابه فقدمته بين يديه فاعجبه وكان يلازم مطالعته ومازلت اطلب دستورا في كل وقت وهو يدافعنى عن ذلك ويستدعيني للحضور فى خدمته فى كل وقت ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه علي وذكره اياى بالجميل فاقام في منزلته ربيعا الآخر جميعه وصعد في اثنائه الي حصن الاكراد وحاصرها يوم مجيئه بها فما رأي الوقت يحمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس فى الشهر دفعتين ودخل البلاد مغيرا ومختبرا لمن بها من العساكر ويقويه العساكر بالغنائم ثم نادى في الناس فى أواخر الشهر انا داخلون الساحل وهو قليل الازواد والعدو يحيط بنا فى بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ثم سير الي مع الفقيه عيسي وكشف الي انه ليس في عزمه أن يمكننى من العود

الي بلادى وكان الله قد أوقع فى قلبي محبته منذ رأيته وحبه الجهاد فأحببته
لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادي الاولى سنة أربع وثمانين وهو يوم
دخوله الساحل وجميع ماحكيته قبل انما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهده
* ومن هذا التاريخ ماسطرت الا ماشاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً
يقارب العيان والله الموفق * ولما كان يوم الجمعة رابع جمادي الاولي رحل
السلطان على تعبية لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولا ومقدمها
عماد الدين زنكي والقلب فى الوسط والميسرة فى الآخر ومقدمها مظفر الدين
وسار الثقل في وسط العسكر حتى أتي المنزل فبتنا تلك الليلة فى بلد العدو
ثم رحل ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يتعرض لها ووصل في السادس
الى أنطرسوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان فى عزمه الاجتياز فانه كان له
عمل بجبلة فاستهان بأمرها فعزم على قتالها فسير من رد الميمنة وأمرها
بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر
ونزل هو فى موضعه وصارت العساكر محدقة بها من البحر الي البحر وهي
مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان وركب هو وقارب
البلد وأمر الناس بالزحف والقتال فلبسوا لامة الحرب والقتال والزحف
وضايقهم فما استتم نصب الخيم حتي صعد الناس السور وأخذوها بالسيف
وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسري واموالهم بأيديهم
وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ووفى بقوله تتغدى
بانطرسوس ان شاء الله وعاد الى خيمته فرحا مسروراً. وحضرنا عنده للهناء
بما جري ومد الطعام وحضر الناس واكلوا على عادتهم ورتب على البرجين
الباقيين الحصار فسلم احدهما مظفر الدين فما زال يحاصره حتي اخرجه واخذ

من كان فيه وامر لسلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وشرعوا في اخرابه واخذوا يحاصرون الآخر . وكان حصنا منيعا مبنيا بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه وخندقه يدور فيه الماء وفيه فروج كثيرة يخرج الناس منها عن بعد وليس له قدر يخرج عليه مسلم فراي السلطان تأخير امره والاشتغال بما هو اهم منه فاشتد في اخراب السور حتى اتى عليه وخرب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من اقطار بلادهم وامر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار في ارزه وبيوته والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير فاقام عليها يخربها الى الرابع عشر وسار يريد جبلة وكان عرض له ولده الملك الظاهر في اثناء طريق جبلة فانه طلبه وامره ان يحضر معه جميع العساكر التى كانت بتبرين

﴿ ذكر فتوحه جبلة واللاذقية ﴾

ووصل الى جبلة في الثامن عشر وما استتم نزول العساكر حتى اتي البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة فاشتغل بقتالها فقاتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها وسلمت بالامان في التاسع عشر واقام عليها الى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقيه وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين وهى بلد مليح خفيف على القلب غير مستور . وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد فنزل محدقا بالبلد واخذ العسكر منازلهم مستديرين علي القلعتين من جميع نواحيها الا من ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف وارتفعت الاصوات وقوي الضجيج الى آخر اليوم المذكور . واخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار ففرق بين الناس الليل وهجومه واصبح

يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا فى أخذ النقوب وأخذت النقوب من شمالي القلاع وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لى من ذرعه ستين ذراعا وعرضه أربعة اذرع واشتد الزحف عليهم حتي صعد الناس الجبل وقاربوا السور وتواصل القتال حتي صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد فلما رأى عدو الله ما حل بهم من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الامان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر وطلبوا قاضي جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم الامان فأجيبوا الي ذلك . وكان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يبخل به رفقا فعاد الناس عنهم الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الي صبيحة السبت ودخل قاضي جبلة اليهم واستقر الحال معهم على انهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الى مأمنهم ورقي عليها العلم الاسلامي المنصور فى بقية ذلك اليوم وأقمنا عليها الى السابع والعشرين

﴿ ذكر فتوح صهيون ﴾

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها فى التاسع والعشرين ونصب عليها ستة مناجيق وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا أو اكثر وهو نقر فى حجر ولها ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة. وكان على قلعتها علم طويل منصوب فحين أقبل العسكر الاسلامي شاهدته قد وقع فاستبشر المسلمون بذلك وعلموا أنه النصر والفتح واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب وكان نصبه

منجنيقا قريبا من سورها فقطع الوادى وكان صائب الحجر فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي اليه منها ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر المنجنيقات ان تتوالى بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان الا ساعة حتي رقي المسلمون على الاسوار التى للربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض * ولقد كنت اشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون وانهزم من كان فى الربض الي القلعة ويحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ونهب الباقي واستدارت المقاتلة حول اسوار القلعة ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الامان ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الامان وأنعم عليهم على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ومن المرأة خمسة وعن الصغير دينارا وسلمت القلعة وأقام السلطان عليها حتى سلم عدة قلاع كالعيد وفيحه وبلاطنيس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب

* ذكر فتوح بكاس *

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادي الاخري بكاس وهى قلعة حصينة على جانب العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان المنزل علي شاطىء العاصي وصعد السلطان جريدة الي القلعة وهي على جبل يطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق الي تاسع الشهر ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر اليها منها بجسر وهى فى غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من

الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الامان في الثالث عشر وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية فأذن فى ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية فقاتلها قتالا شديداً وضايقها مضايقه عظيمة وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية فى أيام الجمع وهى علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ولم يتفق مثلها فى تاريخ .

(ذكر فتوح برزية)

ثم سير السلطان جريدة الى قلعة برزية وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين يحيط بها أوديه من سائر جوانبها وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى الثقل وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات والات الحصار الى الجبل فأحدقت بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب وضرب اسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا وفى السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الاخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا

شديداحتي استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة
الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح فى الناس فحملوا
عليها حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من
كل جانب فلم يكن الا بعض ساعه حتى رقى الناس على الاسوار وهجموا
القلعة وأخذت القلعة عنوة فاستغاثوا الامان وقد تمكنت الايدى منهم فلم
يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما فيهاوأسر جميع من كان
فيها وكان قد أوي اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وكان يوما
عظيما وعاد الناس الي خيامهم غانمين وعاد السلطان الى الثقل فرحا مسرورا
وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلا كبيرا منهم وكان هو ومن أخذ
من أهله سبعة عشر نفسا فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم الي صاحب انطاكية
استمالة له فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله

﴿ ذكر فتوح دربساك ﴾

ثم رحل حتى أتي جسر الحديد واقام عليه أياما وسار حتى نزل على
دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب وهى قلعة منيعة قريبة من انطاكية
فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ
النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة
ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل
منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام فى عرض الجدار مكشفون فاشتد بهم
الامر حتى طلبوا الامان واشترطوا مراجعة انطاكيه وكانت القاعده أن
ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورقي عليها العلم الاسلامى فى الثاني والعشرين
من رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها في الثالث والعشرين منه

﴿ ذكر فتوح بغراس ﴾

وهي قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر فى مرج لها واحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا الى يزك فى تلك المنزلة يحفظ جانب انطاكية لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر فضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها وأنا ممن كان في اليزك فى بعض الايام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكيه ورقي العلم الإسلامي عليها في ثانى شعبان. وفى بقية ذلك اليوم عاد رحمه الله الى المخيم الاكبر وراسله أهل انطاكية فى طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار فى طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين انطاكيه من بلاد الافرنج لاغير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان الي سبعة أشهر فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الي السلطان . ورحل يطلب دمشق فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فاجابه وسار حتى أتى حلب حادى عشر شعبان وأقام بقلعتها ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام ولم يبق من العسكر الا من ناله من نعمته منال وا كثر ظني أنه أشفق عليه والده وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين واصعده الي قلعة حماه واصطنع له طعاما حسنا وأحضر له سماع الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية وسار على طريق بعلبك حتى أتاها وأقام بمرجها يوما ودخل الي حمامها وسار منها حتى دخل رمضان وما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما امكنه وكان قد بقي له القلاع القريبه من حوران التي يخاف عليها من جانبها

كصفد وكوكب فرأى ان يشغل الوقت بفتح الـكانين فى الصوم

﴿ ذكر فتح صفد ﴾

ثم سار فى أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الي مفارقة الاهل والاولاد والوطن فى هذا الشهر الذى يسافر الانسان أين كان فيجتمع فيه بأهله . اللهم انه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجراً عظيما . فسار حتى أتي صفد وهى قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فاحدق العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك وكانت الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يمنعه ذلك عن جده * ولقد كنت عنده فى خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق فقال ما نام حتي تنصب الخمسة وسلم كل منجنيق الي قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها فرويت له الحديث المشهور فى الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلي الله عليه وسلم « عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله » * وفى أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها وخلصوه بها من الاسر وكان قد أسر فى وقعة حطين المباركة ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالبون مع الصوم حتي سلمت بالامان فى رابع عشر شوال

﴿ ذكر فتوح كوكب ﴾

ثم سار يريد كوكب فنزل علي الجبل وجرد العسكر وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوز نشاب العدو ونباله حائطا من

حجر وطين يستتر وراءه حتي لا يقدر احد يقف على باب خيمة الا ان كان ملبساً وكانت الامطار متواترة والوحول عظيمة وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدو مسلطاً عليهم بعلو مكانه وقتل وجرح جماعة ولم يزل راكباً مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها * ولما أحس العدو المخذول انه مأخوذ طلب الامان فاجابهم الي ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة ونزل على الفور الى الثقل وكان قد انزله من شدة الوحل والريح فى سطح الجبل فاقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل فى أشغال شخصية حتى هل هلال ذى الحجة وأعطي الجماعة دستوراً وسار مع أخيه يريد قدس لزيارته ووداع أخيه فانه عائداً الي مصر فوصلا اليه يوم الجمعه ثامن ذي الحجة وصلينا الجمعة فى قبة الصخرة الشريفة وصلينا صلاة العيد الاعظم بها أيضا يوم الاحد وسار حادي عشر طالباً عسقلان لينظر فى حالها فاقام بها أياما يلم شعثها ويصلح أحوالها فودع أخاه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ويمر على البلاد يفتقد أحوالها ويودعها الرجال والعدد حتي أتي عكا فاقام بها معظم محرم سنة خمسة وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق مبتهل صفر سنة خمسة وثمانين .

﴿ ذكر توجهه الى شقيف أرنون وهي السفرة المتصلة بوافعة عكا ﴾

وأقام بدمشق حتى دخل فى ربيع الاول ثلاثه أيام ووصله فى أثناء ربيع الاول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولي العهد فخطب له وجدد عزمه على قصد شقيف أرنون وهو موضع حصين قريب من

بانياس وكان تبريزه في الثالث فسار حتى نزل مرج برغوث وأقام به ينتظر العساكر الي حادي عشرة ورحل حتى أتي بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب فاقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامية فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الي سلامته فنزل بنفسه وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه واكرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده تاني فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت طاعته وانه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وباهله وان يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص اهله وجماعته من صور فاجيب الي ذلك كله واقام يتردد الي خدمة السلطان في كل وقت ويناظره في دينه ونناظره في بطلانه وكان حسن المحاورة ومتأدبا في كلامه وفي أثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتي فرغ زادهم وسلموه بالامان

﴿ ذكر اجتماع الافرنج تقصد عكا ﴾

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك

بتسليمها اطلقه فامرهم بتسليمها ونسلموها فطالبه الملك باطلاقه فاطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الا كراد من انطرسوس واشترط عليه ان لا يشهر في وجهه سيفا أبدا ويكون غلامه ومملوكه وطليقه ابداً فنكث لعنه الله فجمع جموعا وأتي صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذى كان بها فى ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلا عظيما ذا رأي وبأس شديد فى دينه وصرامة عظيمة فقال اني نائب للملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لي فى تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على ان يتفقوا جميعا على المسلمين وتجمع العساكر بصور وغيرها من الافرنجية علي المسلمين وعسكروا على باب صور

﴿ ذكر الواقعة التي استشهد فيها ايبك الاخرش ﴾

وذلك انه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادي الاول من السنة المذكورة بلغ السلطان من اليزك ان الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وبقيت الارض التى نحن عليها فركب السلطان وصاح الجاووش فركب العسكر يريدون نحو اليزك فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض لهم اليزك الاسلامي وكانوا فى قوة وعدة فقاتلوهم قتالا شديدا وقتلوا منهم خلقا كثيرا وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا فى النهر جماعة فغرقوا ونصر الله الاسلام وأهله ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرش فانه استشهد فى ذلك اليوم وكان شجاعا باسلا مجرباً فى الحرب فارسا تقنطر به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته وعاد السلطان الي خيم

كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة

﴿ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين﴾

واقام في تلك الخيم الى التاسع عشر وركب يشرف على القوم على عادة فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة وحرص في ردهم فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع بهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيدا عنهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج بتعبية قتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد وأسر جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا وقتل أيضا من الافرنج عدة عظيمة وغرق أيضا منهم عدة وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية وكان عندهم عظيما محترما واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصارو وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده في سبيل الله ولم تقطر من عينيه عليه دمعة على ما ذكر جماعة لازموه وهذه الوقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة

﴿ ذكر مسير جريدة الي عكا وسبب ذلك ﴾

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين فى تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقدر معهم أنه يهجم على الافرنج ويعبر الجسر ويقتلهم ويستأصل شأفتهم وكان الافرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صمم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ولما وصل أواخر الناس الى أوائلهم وجدوا اليزك عائداً وخيامهم قد قامت فسئلوا عن سبب ذلك فذكروا ان الافرنج رحلو راجعين الى صور ملتجئين الى سورها معتصمين بقربها وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير الي عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي فمضى الى عكا ورتب أحوالها وأمر بتتمة عمارة سورها واتقانه وإحكامه وأمرهم بالاحتياط والاحتراز وعاد الى العسكر المنصور الي مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف لعنه الله

﴿ ذكر وقعة اخرى ﴾

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه ان جماعة من رجالة العدو يسطون ويصلون الي جبل تبنين يحتبطون وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جري عليهم أمر عظيم فرأى أن يقرر قاعدة وكمينا يرتبه لهم ويأخذهم فيه وبلغه انه يخرج وراءهم أيضا خيلا تحفظهم فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الى عسكر تبنين وتقدم اليهم أن يخرجوا فى نفر يسير غائرين على تلك الرجالة وأن خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الي جهة عينها

لهم وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادي الآخرة وأرسل الى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى اذا تحركوا في نصره أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجردين ليس معهم خيمة الي الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين ورتب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارسا من الشجعان الجياد الخيل وأمرهم أن يتراأوا للعدو حتى يظهروا اليهم ويناوشوهم وينهزموا بين أيديهم حتي يصلوا الى الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك وكان قد بلغهم الخبر وتعبوا تعبية القتال وجري بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقاهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير واتصل الحرب بينهم الى أواخر نهار الاثنين ولم يرجع منهم أحد الى العسكر ليخبرهم بما جرى واتصل الخبر بالسلطان فى أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث اليهم بعوثا كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الامر ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد ان جرت مقتلة عظيمة من الجانبين وكانت القتلي من الافرنج على ما ذكر من حضر فاني لم اكن حاضرها زهاء عشرة أنفس ومن المسلمين ستة أنفار اثنان من اليزك وأربعة من العرب منهم الامير رامل وكان شابا تاما حسن الشباب مقدم عشيرته . وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضا واسر هو وثلاثة من أهله . ولما بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الوقعة ان مملوك السلطان أخذ

بالجراح حتي وقع بين القتلي وجراحاته تشخب دما وبات ليلته اجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء ففقده اصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان ففقده فانفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلي على مثال هذه الحالة فحملوه ونقلوه الى المخيم على تلك الحال وعافاه الله وعاد السلطان الي المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر منصوراً * فرحا مسروراً

﴿ ذكر أخذ أصحاب الشقيف وسبب ذلك ﴾

ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا انه صادق فى ذلك وانما قصد فيه تدفع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص فى تحصيل الميرة واتقان الابواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد الي سطح الجبل ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة اليه واظهر ان سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج . وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر وقد مضى من الليل ربعه فما اصبح صاحب الشقيف الا والخيمة مضروبة وبقى بعض العساكر بالمرج علي حاله فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم انه بقى من المدة بقية جمادي الآخرى حدثته نفسه أنه ينزل الي خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده فى المدة وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته ان ذلك يتم فنزل الي الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها الا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً وأظهر أنه بقى من أهله جماعة بصور وانهم على الخروج منها فى هذه الايام وأقام فى الخدمة ذلك اليوم الي الليل وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيأ وأجراه على عادته وتقضى مدته ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان وسأل منه أن

يمهله تمام السنة تسعه أشهر فاحس السلطان منه الغدر فماطله وما أيسه وقال تتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه نعرفك وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرسا لا يشعر بهم وهو على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم فى ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الايام وطولب بتسليم المكان فكشف له انك أضمرت الغدر وجددت فى المكان عمائر * وحملت اليه ذخائر فانكر ذلك واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فمضوا اليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه اليهم ووجدوه قد جدد بابا للسور لم يكن فاقيم الحرس الشديد عليه واظهر ذلك ومنع من الدخول الى الخدمة وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه * ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة وفيه اعترف بانتهاء المدة قال انا امضى واسلم المكان وسار معه جمع كثير من الامراء والاجناد حتى أتى الشقيف وامرهم بالتسليم فأبوا فخرج اليه قسيس وحدثه بلسانه ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن انه اكد الوصية على القسيس فى الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم يتلفتوا واعيد الى المخيم المنصور وسير من ليلته الى بانياس واحيط عليه بقلعتها فاحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف ببانياس الى سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ولم يعملوا فيها شيئا فاحضر الى المخيم وهدد ليلة وصنوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن رجب ورقي الى سنام الجبل بخيمه وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان

فيه أولي وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاجه * ثم بلغنا بعد ذلك ان الافرنج بصور مع الملك قدساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا وان بعضهم نزل بالاسكندرونة وجري بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك

﴿ ذكر وقعة عكا ﴾

وذلك أنه لما بلغ السلطان حركة الافرنج الى تلك الجهة عظم عليه ولم ير المسارعة خوفا من ان يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لاقصد المكان فاقام مستكشفاً للحال الى ثاني عشر رجب فوصل قاصداً آخر أن الافرنج فى بقية ذلك اليوم رحلو ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الي الزيت فعظم ذلك عنده وكتب الي سائر أرباب الاطراف يتقدمون بالعساكر الاسلامية بالمسير الي المخيم المحروس وعاد فجدد الكتب والحث وتقدم الي الثقل أن سار الليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائراً الي عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر الا هو وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلون باخباره وسرنا حتى اتينا الحولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى اتي موضعا يقال له المنية صباح اليوم الرابع عشر وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر وسير صاحب الشقيف الي دمشق بعد الاهانة الشديدة علي سوء صنيعه وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذى كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فان كان واعدهم اليه وتقدم الي الثقل ان يلحقه الي مرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد

بعث حتي حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً وسار من الخروبة وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا وامر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبية وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل العياضية فاحتاط العسكر الاسلامى المنصور بالعدو المخذول وأخذ عليهم الطرف من الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم والجالبش فى كل يوم مع العدو وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد الا ويجرح أو يقتل وكان معسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصليين قريباً من باب البلد وكان عدد راكبهم ألفي فارس وعدد راجلهم ثلاثين الفا ومارأيت من أنقصهم عن ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لاينقطع وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته والبعوث من العساكر الاسلامية تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تتتابع فأول من وصل الامير الكبير مظفر الدين بن زين الدين * ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه وفى أثناء هذا الحال توفى حسام الدين سنقر الاخلاطى وأسف المسلمون عليه اسفاً شديداً فانه كان شجاعا ديناً * ثم ان الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك فى يوم الخميس سلخ رجب * ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته العلية وفتح الطريق الي عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة وغير ذلك فأحضر أمراءه وأصحاب الرأى من دولته وشاورهم فى مضايقة القوم وانفصل

لحمال على انه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ويفتح
وباب والطريق الي عكا فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان وسار مع العسكر
القد رتبه للقتال ميمنة وميسرة وقلبا وضايقهم مضايقة شديدة وكانت الحملة
بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر وجرت حملات عظيمة
وقلبات كثيرة وانصل الحرب الى أن حال بين الفئتين هجوم الليل وبات
الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح تحرس كل طائفة نفسها من
الطائفة الاخري

﴿ ذكر فتح الطريق الى عكا ﴾

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال وأنفذ السلطان
طائفه من شجعان المسلمين الى البحر من شمالى عكا ولم يكن هناك للعدو
خيم لكن العسكر كان قد امتد جريدة الي البحر فحملوا عليهم فانكسروا بين
أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كثيرا وانكف المسلمون منهم الي خيامهم
وهجم المسلمون خلفهم الي أوائل خيامهم وانفتح الطريق الي عكا من باب
القلعة المسماة بقلعة الملك الي باب قراقوش الذي جدده وصار الطريق مهيعا
يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين
الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ودخل السلطان
فى ذلك اليوم الى عكا ورقى علي السور ونظر الي عسكر العدو تحت السور
وفرح المسلمون بنصر الله وخرج العسكر الذي كان بها فى خدمة السلطان
واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الافرنجى وأحدقوا بهم من كل
جانب * ولما استقر به ذلك تراجع الناس عن القتال وذلك بعد الظهر لسقى
لدواب وأخذ الراحة وكان نزولهم على انهم اذا أخذوا حظا من الراحة عادوا

الي القتال لمناجزة القوم وضاق الوقت وأخذ الضجر والتعب من الناس فلم يرجعوا الي القتال فى ذلك اليوم وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الاحد الى القتال رجاء المناجزة بالكلية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد . ولما كانت بكرة الاحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال وأحدقوا بالعدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلي أن يترجل الامراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه فلما تهيأوا لذلك رأي بعض الامراء تأخير ذلك الى بكرة الاثنين رابع شعبان وأن يدخل الراجل كله الي داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد علي العدو من ورائه وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان يوالي هذه الامور بنفسه ويكافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى * ولقد أخبرني بعض أطبائه انه بقى من يوم الجمعة الى يوم الاحد لم يتناول من الغذاء الا شيئا يسيراً لفرط اهتمامه وفعلوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس * وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان

ذكر تأخر الناس الى تل العياضية

ولما كان الثامن عزم العدو علي الخروج بجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا علي التلول وساروا الهوينا غير مفرطين فى أنفسهم ولا خارجين من راجلهم حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا حتي قاربوا خيام اليزك ولما رأى المسلمون ذلك واقدام العدو عليهم شدو

وتنازعت الشجعان * وتنازلت الكماة الي الاقران * وصاح السلطان بالعساكر الاسلامية يا للاسلام فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم شيخهم وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول فعاد ناكصا على عقبيه والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح. والعاطب طريح مشتدون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ولا تلوى الجماعة منهم على قتيلهم حتي لحق الخيام من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياما وكان رأيهم ان يحفظوا انفوسهم* ويحرسوا رؤسهم * واستقر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها وكنت ممن دخل ورقي على السور ورمي العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل والنهار حتي كان الحادى عشر من شعبان ورأي السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الي تل العياضية وهو تل قبالة تل المصليين مشرف على عكا وخيام العدو * وفى هذه المنزلة توفى حسام الدين ظمان وكان من الشجعان ودفن في سفح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وقد مضى من الليل هزيع رحمه الله

﴿ ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو ﴾

وكان سبب ذلك انه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فاكمن السلطان لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم وأمنه عليهم فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيما وأسروا جماعة وأحضروا رؤسا عديدة بين يديه فخلع عليهم وأحسن اليهم وكان ذلك فى السادس عشر * وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من

الطائفتين فطال الامر بين الفئتين وما خلوا يوما من قتل وجرح وسبي ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون الي القتال بعد ساعة * وكان الرجال يوما من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا الى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم فأخرج صبيان من البلد الي صبيين من الافرنج واشتد الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين الي أحد الكافرين فاختطفه وضرب به الارض وقبضه أسيراً فاشتراه بعض الافرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه وهذه نادرة غريبة ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر وما زال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون

(ذكر المصاف الاعظم على عكا)

وذلك أنه لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرون تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدي الملك وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التى لعسكر الاسلام من أولها الى آخرها وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤس التلال وكان طرف ميمنتهم الي النهر وطرف ميسرتهم الي البحر . وأما العسكر الاسلامي المنصور فان السلطان أمر الجاويش ان نادي في الناس يا للاسلام وعساكر الموحدين فركب الناس وقد باعوا أنفسهم

بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم وامتدت الميمنة الى البحر والميسرة الي النهر كذلك أيضاً وكان رحمه الله قد أنزل الناس فى الخيم ميمنة وميسرة وقلبا تعبية الحرب حتي اذا وقعت صيحة لايحتاجون الي تجديد ترتيب وكان هو فى القلب وفى ميمنة القلب ولده الملك الافضل ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين ابن البلنكري ثم عسكر ديار بكر فى خدمة قطب الدين ابن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ثم الطواشي قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفلة وعسكره وهو مطل على البحر * وأما أوائل الميسرة فكان مما يلى القلب سيف الدين على المشطوب وعلى بن أحمد من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم والامير على وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفلة وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكيج ورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ومقدم القلب الفقيه عيسي وجمعه * هذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال * ويدعوهم الى النزال * ويرغبهم فى نصر دين الله ولم يزل القوم يتقدمون * والمسلمون يقدمون حتي علا النهار ومضي فيه مقدار أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان فى طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيأ اطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمد بالطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت

علي تل مشرف على البحر ولما رأي الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة وهم يسبقون حينا وجاءت الحملة علي الديار البكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين العدو وانكسروا كسرة عظيمة وسري الامر حتي انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين الي العياضية فانهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو الى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك * وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله * وأما الميسرة فانها ثبتت لان الحملة لم تصادفها وأما السلطان فاخذ يطوف علي الاطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم علي الجهاد وينادي فيهم يا للاسلام ولم يبق معه الا خمسة أنفس وهو يطوف على الاطلاب ويخرق الصفوف ويأوى الي تحت التل الذى كان عليه الخيام * وأما المنهزمون من العسكر فانهم بلغت هزيمتهم الى الفحوانة قاطع جسر طبرية وأم منهم قوم محروسة دمشق فاما المتبعون لهم فانهم اتبعوهم الى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الي الجبل رجعوا عنهم وجاؤا عائدين الي عسكرهم فلقيهم جماعة من الغلمان والخزيندية والساسة منهزمين علي بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فان السوق كان عظيما ولهم سلاح * وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فانهم لم يلتمسوا فيها شيأ أصلا سوي أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا ان الكسرة لا تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون

عسكرهم * واما السلطان فان كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا الي المحلة على العدو فلما رأوا الافرنج نازلين من التل ارادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر الى ان ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح فى الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم فى عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وانهم انما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا فى الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس فى قتل وطرح وضرب وجرح الي ان اتصل المنهزمون السالمون الي عسكرهم فهجم عليهم فى الخيام فخرج منهم اطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الامر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد اخذ من الناس والعرق قد ألجمهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم الى خيامهم فرحين مسرورين وعاد السلطان فى ذلك اليوم الي خيمته فرحا مسروراً وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائه وخمسين نفراً ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهناء لا يوم العزاء وكان هو قد وقع عن فرسه واركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل فى ذلك اليوم الامير مجلي هذا الذي قتل من المسلمين وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد

حملوهم الى شاطىء النهر ليلقوا فيه فخزرتهم بدون سبعة آلاف * ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم ورأي الغلمان خلو الخيام عمن يعترض عليهم فان العسكر انقسم الى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق فى الخيم أحد وراءنا فظنوا ان الكسرة تم وان العدو ينهب جميع ما فى الخيام فوضعوا أيديهم فى الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا . ولما عاد السلطان الي الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع الي الكتب والرسل فى رد المنهزمين وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتابع فى هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيتق وأخذوهم بالكره الي عسكر المسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من اكف الغلمان الى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى كل من عرف شيأ وحلف عليه يسلم اليه وهو يلقى هذه الاحوال بقلب صلب . وصدر رحب . ووجه منبسط. ورأى مستقيم غير مختبط . واحتساب لله تعالي وقوة عزم فى نصرة دين الله * وأما العدو المخذول فانه عاد الي خيمة وقد قتل شجعانهم وطرحت مقدموهم وفقدت ملوكهم فأمر السلطان ان خرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم الى طرف النهر ليلقوا فيه * ولقد حكى لى بعض من ولى أمر العجل انه أخذ خيطا وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور وبقى قتلي الميمنة وقتل القلب لم يعدهم فانه ولي امرهم غيره وبقى من العدو بعد ذلك من حمي نفسه وأقاموا فى مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فانه مارجع منها الا رجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا في حال

سبيلهم واخذ السلطان فى جمع الاموال المنهوبة واعادتها الى اصحابها واقام المناداة فى العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولي تفرقتها بنفسه بين يديه واجتمع من الاقمشة عدد كثير فى خدمته حتي ان الجالس فى أحد الطرفين لا يري الجالس فى الطرف الآخر وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وسار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف واخذه من الحبل والمخلاة الى الهميان والجوهر ولقى من ذلك مشقة عظيمة ولا يري ذلك الا نعمة من الله تعالى يشكر عليها . ويسابق يد القبول اليها . ولقد حضرت يوم تفرقت الاقمشة على اربابها فرأيت سوقا للعدل قائمة لم ير فى الدنيا أعظم منها وكان ذلك فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع الي موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من روائح القتلى وآثار الوخم من الوقعة وهو موضع قريب من مكان الوقعة الا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلا فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك أن يكون مقيما فى المكان الذي كان نازلا فيه وذلك فى التاسع والعشرين واستحضر الامراء وأرباب المشورة فى سلخ الشهر ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم قال بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله. اعلموا ان هذا عدو الله وعدونا قد نزل فى بلدنا وقد وطء أرض الاسلام . وقد لاحت لوائح النصر عليه وان شاء الله تعالي وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان بقى وطال أمره الي ان ينفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأى كل الرأى عندي مناجزتهم فلينجز ناكل

منكم ما عنده فى ذلك * وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية وامتخضت الآراء وجرى تجاذب فى أطراف الكلام وانفصلت آراؤهم على ان المصلحة تأخير العسكر الى الخروبة وان يبقي العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح وترجع النفوس اليهم فقد أخذ التعب منهم واستولي علي نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوي لا تؤمن غائلته . والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها اليها ويصل الملك العادل ويشاركنا فى الرأى والعمل وسنعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا فى مقابلة الرجالة وكان بالسلطان التياث مزاجى قد عراه من كثرة ما حمل علي قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الايام فوقع ماقالوه ورأوه مصلحة . وكان انتقال العسكر الي الثقل ثالث رمضان وانتقال السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر وينتظر اخاه الي عاشر رمضان .

﴿ ذكر وصول خبر الالمان ﴾

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر عز نصره يخبر فيها انه قد صح ان ملك الالمان قد خرج الى القسطنطينية فى عدة عظيمة قيل مائتا ألف وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلامية فاشتد ذلك علي السلطان وعظم عليه ورأي استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير الي صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب اربل واستدعاهم الي الجهاد بانفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير

الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة وكان الخليفة اذذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بامر الله وكان مسيري فى ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ويسر الله تعالى ألوصول الي الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم فاجابوا بنفوسهم وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه فى تلك السنة وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجرشاه بنفسه يجر عسكره وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره وحضرت الديوان السعيد ببغداد وأنهيت الحال كما رسم ووعد بكل جميل • عدت الى خدمته رحمة الله عليه وكان وصولي اليه في يوم الخميس خامس ربيع الاول من شهور سنة ست وثمانين وكنت قدسبقت العساكر واخبرته باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير فسر بذلك وفرح فرحا شديدا

ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو فأوغل فى الصيد وبلغ ذلك العدو فاخذوا غرة العسكر واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم علي العسكر الاسلامى فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس وركبت العساكر من كل جانب وحمل علي القوم وجرت مقتلة عظيمة قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ولم يقتل من معروفى المسلمين الا مملوك للسلطان يقال له أرغش وكان رجلا صالحا استشهد فى ذلك اليوم وبلغ الخبر الي السلطان فعاد منزعجا فوجد الحرب قد انفصل وعاد كل فريق الي حزبه وعاد العدو خائبا خاسراً ولله الحمد والمنة • وما مضي من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلى وعرفت الباقي معرفة خاصة فى هذه الامور * ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوكا كان للسلطان

يدعي قرة سنقر وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما وفتك فيهم فاخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكمنوا له وخرج اليه بعضهم وترا أوا له فحمل عليهم حتى صار بينهم فوثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الاخر رقبته بسيفه فانه كان قتل له أقرباء فوقعت الضربة في يد الممسك بشعره فقطعت يده وخلى سبيله فاشتد هاربا حتى عاد الى أصحابه واعداء الله يشتدون عدوا خلفه لم يلحقه منهم أحد وعاد سالما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً

ذكر وفاة الفقيه عيسي

وهي مما بلغني ولم اكن حاضرها وذلك انه مرض مرضا يتعاهده وهو ضعيف النفس وعرض له اسهال اضعفه فلم تقطع صلابته ولم يغب ذهنه عنه الي ان مات وكان رحمه الله كريما شجاعا حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين توفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذى القعدة من شهور سنة خمسة وثمانين

(ذكر تسليم الشقيف سنة ستة وثمانين

ولما كان يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول علم الافرنج المستحفظون بالشقيق انهم لا عاصم لهم من امر الله وانهم ان اخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الامان وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الاوان وكانوا قد علموا من حال صاحبهم انه قد عذب أشد العذاب فاستقرت القاعدة على ان الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك ما فيه من أنواع الاموال والذخائر وعاد صاحب صيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور

ولما رأى السلطان من اهتمام الافرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب عزائمهم نحوه اغتنم الشتاء وانقطاع البحر وجعل في عكا من الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالي وتقدم الي النواب بمصر ان عمروا لها اسطولا عظيما يحمل خلقاً كثيراً وسار حتى دخل عكا مكابرة للعدو ومراغمة له واعطي العساكر دستورا طول الشتاء يستجمعون ويستريحون وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو وقد حال بين العسكرين شدة الوحول وتعذر بذلك وصول بعضهم الي بعض

(ظريفة)

كان لما بلغ خبر العدو وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الرأى ببرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه ان قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول الي البلد والا فان نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت أشارة الجماعة أنهم اذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد وكان الامر كما قال السلطان والله لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان * وهو يوافق معني قوله صلى الله عليه وسلم ان من أمتي لمحدثين ومكلمين وان عمر لمنهم

﴿ذكر وصول رسول الخليفة﴾

ولم يزل السلطان مجداً في الانفاذ إلي عكا بالميرة والعدد والاسلحة والرجال حتي انقضي الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال كتب الي العسكر يستدعيها من الاطراف * ولما تواصل أوائل العساكر وقوي جيش الاسلام

رحل السلطان نحو العدو ونزل على تل كيسان وذلك فى ثامن عشر شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين ورتب العسكر قلباً وميمنة وميسرة واخذت العساكر فى التواصل والنجدة فى التواتر فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ووصل منه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجده الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان ان يقترض عشرين الف دينار من التجار ينفقها فى الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز فقبل جميع ماوصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتثقيل بها * وفى ذلك اليوم بلغ السلطان ان الافرنج قدز حفوا على البلد وضايقوه فركب اليهم لشغلهم بالقتال عن البلد وقاتلهم قتالا شديداً الى أن فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الي أصحابه ورأي السلطان قوة العساكر الاسلامية وبعد المكان عن العدو نخاف ان لايهجم البلد ويتم عليه أمر فرأى الانتقال الي تل العجول بالكلية فانتقل بالعسكر والثقل فى الخامس والعشرين وفى صبيحة هذا اليوم وصلت كتب أن قدطم العدو بعض الخندق وقوى عزمه على منازلة البلد ومضايقته فجدد الكتب الى العساكر بالحث على الوصول وعبى العسكر تعبية القتال وزحف الي العدو ليشغله عن ذلك * ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازى صاحب حلب جريدة الى خدمته معاجلة البر وترك عسكره فى المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه وعاد الى عسكره في الثامن والعشرين وسار حتى وصل في ذلك اليوم بجحفله وقد أظهروا الزينة ولبسوا لامة الحرب وكثرت الاعلام والبيارق وضربت الكؤوسات ونعقت البوقات وعرض بين يدى والده وكان قد ركب الي لقائه فى المرج وسار بهم حتى وقف بهم على العدو

وشاهدوا من جند الله ماازعجهم وأقلقهم * وفى أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضا مسارعة للخدمة ثم عاد الي عسكره في لامة الحرب فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو * وكان ماتقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الي العدو وينزل بهم في خيمته يعد لهم الطعام وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين

﴿ لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره ﴾

وذلك ان العدو كان قد اصطنع ثلاثة ابراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل علي ماذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على سور البلد وهي مركبة علي عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحها لان ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل فى قلوب المسلمين واودعها من الخوف مالا يمكن شرحه وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان فرغ من عملها ولم يبق الا جرها الي قريب السور وكان السلطان قد اعمل فكره في احراقها واهلاكها وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وحثهم علي الاجتهاد في احراقها ووعدهم عليه بالاموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضاقت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه ان له صناعة في احراقها وانه ان مكن من الدخول الي عكا وحصلت له الادوية التي يعرفها احرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ الادوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار * ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن الا ان وقعت

فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب وبينما الناس ينظرون ويتعجبون اذ رمى البرج الثاني بالقدر الثانية فما كان الا ان وصلت اليه واشتعلت كالتي قبلها فاشتد ضجيج الفئتين وانعقدت الاصوات الي السماء وما كان الا ساعة حتي ضرب الثالث فالتهب وغشي الناس من الفرح والسرور ماحرك ذوي الاحلام والنهي منهم حركة الشباب الرعنا وركب السلطان وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان أواخر النهار وسار حتى أتي عسكر القوم وانتظر أن يخرجوا فينا جزهم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم من فتح له باب من الخير فلينتهزه فلم يظهر العدو من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى حزبه ورأي الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر واستبشر والده بغرته وعلم ان ذلك بيمن صلاح سريرته واستمر ركوب السلطان اليهم فى كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل

﴿ ذكر وصول عماد الدين زنكى صاحب سنجار وغيره ﴾

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار بجر عسكره ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ولقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر فى لقائه وكان اول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ثم لقيه أولاده بعد ذلك ثم لقيه السلطان ثم سار به حتي أوقفه على العدو وعاد معه الى خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم فحضر هو وجميع أصحابه وقدم له من التحف واللطائف مالا يقدر غيره عليه وكان قد اكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة الي جانبه

وبسط له ثوب أطلس عند دخوله وضرب له خيمة علي طرف الميسرة علي جانب النهر . فلما كان سابع جمادى الاولي من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ووصل فى عسكر حسن فلقيه السلطان واحترمه واكرمه وأنزله فى خيمته وأمر أن ضربت خيمته الى جانب عماد الدين . وفى تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدما على عسكره ففرح السلطان بقدومه فرحا شديدا وتلقاه عن بعد هو واهله واستحسن أدبه وانزله عنده في الخيمة وكارمه مكارمة عظيمة وقدم له تحفا حسنة وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الافضل والملك الظاهر . وما من أهله الا من بسط له من ضيافته وجها مضيئا * ولما كانت ظهيرة نهار ذلك اليوم ظهرت فى البحر قلوع كثيرة وكان رحمه الله فى نظره وصول الاسطول من مصر فانه كان قد أمر بتعميره ووصوله فعلم انه هو فركب السلطان وركب الناس فى خدمته وتعبي تعبية القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الاسطول * ولما علم العدو وصول الاسطول استعدوا له وعمروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا وخرج اسطول العدو واشتد السلطان فى قتاله من خارج وسار الناس علي جانب البحر تقوية للاسطول وايناسا لرجاله والتقى الاسطولان فى البحر والعسكران فى البر واضطرمت نيران الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الاخروية * ورجح حياته الابدية على حياته الدنيوية * وجرى بين الاسطولين قتال شديدا نقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي واخذ من العدو الشواني وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلا من قسطنطينية ودخل الاسطول المنصور الى عكا

وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها ميرة وذخائر وطابت قلوب اهل البلد وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد اخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى ان فصل بينهما الليل وعاد كل فريق الى خيامه وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم فانهم قاتلوا فى ثلاثة مواضع فان أهل البلد اشتدوا فى قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول ايضا والاسطولان يتقاتلان والعسكر يقاتلهم من البر وكان النصر للمسلمين في الاماكن كلها ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الاواخر من جمادي الاولي وهو زين الدين يوسف بن على بن بكتكين قدم بعسكر حسن وتجمل جميل فاحترمه السلطان واكرمه وأنزله فى خيمته واكرم ضيافته وامر بضرب خيمته الي جانب خيمة أخيه مظفر الدين

﴿ ذكر خبر ملك الالمان ﴾

ثم تواترت الاخبار بوصول ملك الألمان الي بلاد قليج أرسلان وأنه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان وقصدوا منعه من عبور النهر وانه اعجزهم لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان أظهر شقاقه وهو فى الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر الى البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه على ان ينفذ معه من يوصله الى بلاد ابن لاون وأنفذ معه أدلاء. وعراهم فى الطريق جوع عظيم حتي ألقوا بعض اقمشتهم * ولقد بلغنا والله أعلم انهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها وجعلوها سدرا واحداً وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها احدوانها بقيت بعد ذلك تلا من حديد وساروا على ذلك الحال حتي انوا الي بلد يقال لها طرسوس فاقاموا على نهر ليعبر. واما ملكهم

فعن له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد وكان ذلك عقيب ما ناله من
التعب والنصب والمشقة والخوف وانه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم
اشتد به الي أن قتله * ولما رأى ماحل به أوصى إلي ابنه الذى كان فى صحبته
ولما مات أجمعوا رأيهم الي أن سلقوه فى خل وجمعوا عظامه في كيس على أن
يحملوه الى القدس الشريف حرسه الله ويدفنوه فى القدس وترتب ابنه مكانه
على خلف من أصحابه فان ولده الاكبر كان قد خلفه فى بلاده وكان جماعة من
أصحابه يميلون اليه واستقر قدم ولده الحاضر فى تقدمه العسكر * ولما أحس
ابن لاون بما جري عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف
بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقى بنفسه بينهم فانه لا يعلم كيف يكون
الامر وهم إفرنج وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعة المنيعة

(صورة كتاب الكايفكوس الارمنى)

واقد وصل الى السلطان كتاب من الكايفكوس وهو مقدم الارمن
وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات نسخة هذه ترجمتها * كتاب
الداعى المخلص الكايفكوس ما أطالع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر
جامع كلمة الايمان . رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين * سلطان
الاسلام والمسلمين ادام الله اقباله * وضاعف جلاله . وصان مهجته وكمل
نهاية آماله . بعظمته وجلاله . من امر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره
وذلك انه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصبا غصب ملك
الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ثم انه
دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها واقام بها واخرج ملك الروم الى
أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خاصائه وأخذ منه خمسين

قنطاراً ذهبا وخمسين قنطاراً فضة وثياب أطلس بمبلغ عظيم واغتصب المراكب وعاد بها الى هذا الجنب وصحبته الرهائن ألى ان دخل حدود بلاد الملك قليج ارسلان ورد الرهائن وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والبقر والخيل والبضائع قد اخلهم الطمع وجمعوا جموعا من جميع البلاد ووقع القتل بين التركمان وبينه وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج ارسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمه وسار حتي اشرف على قونية فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم على قونية بالسيف وقتل منهم عالماً عظيما من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج أرسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة اكيدة وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه وقبل وصوله الي هذه الديار اختياراً أو كرها اقتضي الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبته ماسأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية أن يمروا به على بلاد قليج أرسلان أن أمكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير واعادوا عليه الجواب عرفوه الاحوال بالانحراف ثم كثرة عليه العساكر والجوع ونزل على شط بعض الانهار واكل خبزا ونام وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد ففعل ذلك وخرج وكان من امر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياما قلائل ومات * وأما ابن لاون فانه كان سائرا يلتقي الملك فلما جرى هيرا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا اليه واخبروه فى الحال فدخل في بعض حصونه واحتمي هناك. وأما ابن الملك

فكان أبوه منذ توجه الى قصد هذه الديار نصب ولده الذى معه عوضه واستقرت القاعدة وبلغه هرب رسل ابن لاون فانفذوا استعطفهم وأحضرهم وقال ان أبي كان شيخا كبيراً وما قصد هذه الديار الا لاجل حج بيت المقدس وأنا الذى دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق فمن اطاعني والا قصدت دياره واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة* وبالجملة فهو فى عدد كثير * ولقد عرض عسكره فكان اثنين واربعين مجفجفاً وأما الرجالة فما يحصى عددهم وهم اجناس متفاوتة على قصد عظيم وحد فى أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جني منهم جناية فليس له جزاء الا أن يذبح مثل الشاة * ولقد بلغهم عن بعض اكابرهم انه جني على غلام له وجاوز الحد فى ضربه فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضي الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت الي ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتي أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس . ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموا ما حل ولم يلبسوا الا الحديد حتى انكر عليهم الاكابر ذلك وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم . طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالي* هذا كتاب الكايفكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة واسمه بركرى كور بن باسيل

﴿ ذكر مسير العساكر الى أطراف البلاد فى طريق ملك الالمان ﴾

ولما تحقق السلطان وصول ملك الروم الي بلاد ابن لاون وقربه الى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأي على أن العسكر بعضه يسير الي البلاد المتاخمة لطريق عسكر

العدو الواصل وان يقيم على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين بن تقى الدين ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما ثم مجد الدين صاحب بعلبك ثم صاحب شيزر سابق الدين ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماه . وسار ولده الملك الافضل مع مرض عرض له ثم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضا وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر الي حلب لابانة الطريق وكشفا لاخباره وحفظا لما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز * ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فأمر رحمه الله الملك العادل ان ينتقل الي منزلة تقى الدين فى طرف الميمنة وكان عماد الدين زنكى فى طرف الميسرة . ووقع فى العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر وشفى ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بحمد الله وكان المرض عند العدو اكثر وأعظم وكان مقرونا بموتان عظيم وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدو

﴿ ذكر تمام خبر ملك الالمان ﴾

وذلك ان ولده الذى قام مقامه مرض مرضا عظيما أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون داوياوجهز عسكره نحو انطاكية حتي يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس بقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مئتي رجل قهرا ونهبا وكبت جزؤ منهم بالضعف العظيم والمرض

الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات * ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية أنفذوا اليهم عسكرا يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب الملوفة فاغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس * ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كيغا الفرس بين يدي السلطان وهو يذكر خبرهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وخم أياما فقل زادنا وأحطابنا وأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها وأكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب . وأما الكند الذي وصل الى انطاكية في مقدمة العسكر فانه مات وذكر ان ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتى انه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه وأن البرنس صاحب أنطاكية لما أحس منهم بذلك أرسل الى ملك الالمان التقطه الي انطاكية طمعا في أن يموت عنده ويأخذ ماله ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الي أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر

﴿ ذكر الوقعة العادلية ﴾

ولما كان يوم الاربعاء العشرون من جمادى الآخرة علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت وان الميمنة قد خفت لان معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا ارأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة

النهار وامتدوا ميمنة وميسرة وقلبا وانبثوا فى الارض وكانوا عددا عظيما واستخفوا طرف الميمنة وكان فيها مخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم قد خرجوا فى تعبية القتال صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان ونادى مناديه يا للاسلام وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب (ولقد) رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهو كالفاقدة ولدها . الثاكلة واحدها. ثم ضرب الكوس وأجابته كؤسات الامراء من أماكنها وركب الناس * وأما الافرنج فانهم سارعوا فى القصد الي الميمنة حتى وصلوا الى خيمة الملك العادل ودخلوا فى راقة وامتدت أيديهم فى السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الى خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناتها شيأ * وأما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايماز النجمى ومن يجراه من أسود الاسلام ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى الخيم ويشتغلوا فى النهب وكان كما ظن فانهم عاثت أيديهم فى الخيام والاقمشة والفواكه والمطاعم فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه وحمل حملته من كان يليه عن الميمنة واتصل الأمر بجميع الميمنة حتي وصل الصائح الي عسكر الموصل وهجموا علي العدو هجمة الاسود علي فريستها فأمكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين . وعلي أعقابهم ناكصين . وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح ويفصل بين الاجساد والرؤس . ويفرق بين الابدان والنفوس . ولما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه ثارت في قلبه نار الاشفاق وحركت الحمية اخوته . وانهضته

الرغبة فى نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيمته * وصاح صائحه فى الناس ياللاسلام وابطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال ووقف رحمه الله في القلب خشية ان يستضعف العدو القلب بحكم ماانفذ منه من العساكر فينال غرضا فتواصلت العساكر واتصل الضرب وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأيت القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم أولهم فى الخيم الاسلاميه وآخرهم فى خيم العدو صرعي على التلول والوهاد وسربت السيوف من دمائهم حتى رويت * وأكلت أسد الوغى باسنان الظفر منهم حتي شبعت . وأظهر الله كلمته . وحقق لعبده نصرته . وكان مقدار ماامتد فيه القتلى فيما بين الخيامين فرسخا وربما زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا النادر . ولقد خضت فى تلك الدماء بدابتى واجتهدت في أن أعدهم فما قدرت علي ذلك لكثرتهم وتفرقهم وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين وحكي لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان وأسر من الرجال فى ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كان أمر الناس أن لايستبقوا أحدا هذا كله فى الميمنة وبعض القلب وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الامر وقضي القضاء على العدو مابين الظهر والعصر فان العدو ظهر فى قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الي مخيمهم على ماقيل ولم يفقد من

المسلمين أحد في ذلك اليوم سوي عشرة انفس غير معروفين. ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من الوقعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعة من اعالي السور خرجوا الي مخيم العدو وجرت بينهم مقتلة عظيمة وكانت النصرة للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمًا من النسوان والاقمشة حتى القدور فيها الطعام ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك وكان يوما على الكافرين عسيرا واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوام أنهم ثمانية آلاف. ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو لقد لقيت انسانا جنديا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له كم عددت فقال لي هاهنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلا وكان قد عد صفين وهو في الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف كان اكثر عدداً من الباقي وانجلي يوم الاربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام ولما كان يوم الخميس الحادى والعشرون من جمادي المذكورة ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه ان جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ونهض العسكر الاسلامي من حلب اليهم وأخذ عليهم الطريق ولم ينج منهم الا من شاء الله وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الواقعة المباركة وقعا عظيما وضربت البشائر ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة. وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك قايماز الحراني وذكر ان العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل اليهم ليسمع منه حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم ولم يزل عدو الله من حينه مكسور الجناح من الجانبين حتى وصلهم كند يقال له كندهرى.

ذكر وصول الكندهرى

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل فى البحر فى مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والميرة والاسلحة والرجال عدد عظيم فقوى بوصوله عزمهم واشتد أزرهم وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامى المنصور ليلا وكثر ذلك الحديث على السنة المستأمنين والجواسيس فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأى واستشارهم فيما يفعل فكان آخر الرأي انهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله فى قلبه فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك فى السابع والعشرين من جمادى الاخرى وترك نفية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار الف فارس يتناوبون لحفظ النوبة . هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا اليها على أجنحة الطيور وأيدي السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو . هذا واخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده وما قد عراهم من الموت والمرض وانهم قد اجتمعوا بانطاكية وانهم قد بقوا رجالة وان أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ومن يخرج منهم

ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسر الله فتحها

وكان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة وكان وصل منه رسول الى باب السلطاني بمرج عيون هم رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة فى جواب رسول كان أنفذه السلطان اليه بعد تقرير القواعد واقامة

قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فمضي الرسول وأقام الخطبة ولقى احتراما عظيما وأكراما زائدا وكان قد انفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ورقي الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار اقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظار الحال في ذلك فاقام مدة .. ولقد شاهدته يبلغ لرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ أحسن ما يفرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة مختوم والكتاب بذهب ولما مات وصل الى ملك قسطنطينية خبر وفاته فانفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ووصل معه الكتاب في جواب ذلك . وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ووصفه انه كان كتابا مدرجا عرضا وهو دون عرض كتاب بغداد مترجما ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجة وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك وزن الذهب خمسة عشر دينارا مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته

(من ايسا كيوس) الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله المنصور العالى أبدا افققوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ضابط الروم بذاته انكاوس الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين والمحبة والمودة. قد وصل خط نسيبك الذي انفذت الي ملكي وقرأناه وعلمنا من ان رسولنا توفى وحزنا عليه حيث انه توفى في بلد وريب وماقدر ان يتم كل ما رسم له ملكي وأمره ان يتحدث به مع نسيبك ويقول في حضرتك ولا بد لنسيبتك ان تهتم بانفاذ رسل الى ملكي مع رسول المتوفى والقماش الذي خلفه ويوجد بعد موته

لنعطيه أولاده وأقاربه وما اظن انه يسمع من نسبتك أخيار أودية وانه قد سافر في بلادى الالمان ولا عجب فان الاعداء يرجفون باشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ولو تشتهي أن تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا كثيراً اكثر مما أوذي فلاحو بلادك وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرجال ومات منهم وقتلوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الي بلادك فان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة لا ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك . وبعد ذلك كيف نسيت الذي بيني وبينك وكيف ما عرفت الملكي شيئا من المقاصد والمهات . ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الافرنج وجنسهم * فوقف رحمه الله على هذه الترجمة واكرم الرسول وأحسن مثواه . وكان شيخنا حسن الخلق نبيها عارفا بالعربية والرومية والافرنجية * ثم ان الافرنج شدوا في حصار البلد وضايقوه لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندهري فانه وصل علي ما ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ووصلتهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ونازلوا البلد بالقتال

(ذكر حريق المنجنيقات)

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوته بسبب توالي النجدات عليهم اشتد طمعهم في البلد وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلا ولا نهاراً وذلك في أثناء رجب . ولما رأي أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعهم بهم حركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ اما والي البلد وحارسه فالامير الكبير بهاء الدين قراقوش * وأما مقدم العسكر فالامير الكبير الاسفهسلار حسام الدين

أبو الهيجاء وكان رجلا ذا كرم وشجاعة وتقدم فى عشيرته * ومضاء فى عزيمته
فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون الي العدو فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة
منهم ففعلوا ذلك وفتحت الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ولم
يشعر العدو الا والسيف فيهم حاكم عادل * وسهم قدر الله وقضائه فيهم نافذ
نازل * وهجم الاسلام على الكفر فى منازله * وأخذ بناصية مناضله ورأس
مقاتلة * ولما ولج المسلمون لخيام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحياطتها
وحراستها . وحفظها وسياستها . فوصلت شهب الزراقين المقذوفة . وجاءت
عوائد الله فى نصرة دينه المألوفة . فلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران
. وتحرقت منها بيدها ما شيده الاعداء فى المدة الطويلة فى أقرب آن . وقتل
من العدو سبعون فارسا وأسر خلق عظيم وكان من جملة الاسرى رجل
مذكور منهم ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته. ولما انفصل الحرب
سأل الافرنج عنه هل هو حي أم لا فعرف الذى هو عنده عند سؤالهم أنه
رجل كبير فيهم وخاف أن يغلب عليه ويرد بنوع مصانعة أو على وجه
من الوجوه فسارع وقتله وبذل الافرنج فيه اموالا كثيرة ولم يزالوا يشتدون فى
طلبه ويحرصون عليه حتى ريئت لهم جثته فضربوا بنفوسهم الارض وحثوا
على رؤوسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة وكتموا أمره ولم
يظهروا من كان واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من
كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون الي ليلة نصف شعبان وكان
السكندهرى قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس
والمستأمنون ألفا وخمسمائة دينار وأعده ليقدمه الى البلد ومنع من حريقه فى
ذلك اليوم كونه بعيدا عن البلد لم يقدم بعد اليه . ولما كانت الليلة المباركة

المذكورة خرج الزراقين والمقاتلة تحفظهم من كل جانب والله يكلأهم فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور وأضرموا فيه النار فاحترق من ساعته ووقع الصباح من الطائفتين وذهل العدو فانه كان بعيداً من البلد وخافوا ان يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب وكان نصراً من عند الله واحرق بلهيبه منجنيقاً لطيفاً الى جانبه

ذكر الحيلة وادخال عكة بطسة عمرها وأودعها أربعمائة ﴿غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل﴾ ﴿والغنم وغير ذلك من الميرة﴾

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الي الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تري من بعد وعلقوا الصلبان وجاؤا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم فى الحراقات والشوانى وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا أنهم منهم فقالوا أولم تكونوا قد أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع الي العسكر وقد أتى بطسة أخري فى هوائنا فانذروهم حتي يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة افرنجية قد اتفقت معهم فى البحر قاصدة العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها ينذرونها فاشتدت البطسة الاسلامية فى السير واستقامت لها الريح حتي دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد. وكان فرحا عظيما فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان

ذلك فى العشر الاواخر من رجب

﴿ ذكر قصة العوام عيسى ﴾

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ان عواما مسلما يقال له عيسي وصل الي البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثه اكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر وعام فى البحر فجرى عليه أمر أهلكه وابطأ خبره عنا. وكانت عادته اذا دخل البلد أطار طيراً عرفنا بوصوله فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه. ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر فى البلد اذا هو قد قذف شيأ غريقا فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين فما رؤى من أدى الامانة فى حال حياته وقد ردها فى مماته الا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضا

﴿ ذكر حريق المنجنيقات ﴾

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وان حجارتها تواترت حتى أثرت فى السور أثراً بينا وخيف من غائلاتها فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم فأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا فى المنجنيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو فى اطفائهما فلم يقدر علي ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال فى اطفائهما وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين

﴿ ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها المركيس ﴾

ولما استقر قدم ملك الالمان فى انطاكية أخذها من صاحبها وحكم فيها وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فاخذها منه غيلة وخديعة وأودعها خزائنه وسار عنها فى الخامس والعشرين من رجب متوجهاً نحو عكا فى جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى الى طرابلس وكان قد سار اليه من معسكر الافرنج يلتقيه المركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأساً وهو الاصل فى تهييج الجموع من وراء البحر * وذلك انه صور القدس فى ورقة وصور فيه صورة القمامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم وصور على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطيء قبر المسيح وبال الفرس على القبر وأبدي هذه الصررة وراء البحر فى الاسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور وللصور عمل فى قلوبهم فانها أصل دينهم فهاج بذلك خلق لا يحصي عددهم الا الله وكان من جملتهم ملك الالمان وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا فى استدعائهم الى هذه الواقعة فلما اتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق وسلك به الساحل خوفاً من انه اذا أتي على بلاد حطب وحماة ثار لهم المسلمون من كل جانب وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب . ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فان الملك المظفر قصدهم بعساكره وجمع لهم جموعاً وهجم عليهم هجوماً عظيما أخذ فيه من أطراف عساكره وكان قد لحقهم باوائل عسكره ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضي

عليهم ولكن لكل أجل كتاب واختلف حزر الناس لهم . ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد ان كانوا قد خرجوا على ماذكر فانظر الي صنع الله مع أعدائه * ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه انهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا فى أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها الا العظام من شدة الجوع ولم يزالو سائرين وأيدى المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا وأسرا حتي أتوا طرابلس ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لا يرده ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات عليها والهجوم عليهم فى كل وقت مفوضا أمره الي الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا يسره من يفد اليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والادباء * ولقد كنت اذا بلغنى هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه واجد منه من قوة الله وشدة اليأس مايشرح صدري واتيقن معه نصرة الاسلام وأهله

﴿ ذكر وصول البطس من مصر ﴾

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقواش وهو والي البلد والمقدم على الاسطول والحاجب لؤلؤ يذكران السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الاقدر يكفى الي ليلة النصف من شعبان لاغير فأسرها وسف في نفسه ولم يبدها لخاص ولا لعام خشية الشيوع والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الي مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والادم والمير وجميع ما يحتاج اليه فى الحصار بحيث يكفيهم ذلك

طول الشتاء واقلعت البطس الثالث من الديار المصرية ولجت فى البحر تتوقى النوتية بها الريح حتى ساروا بالريح التى تحملها الى نحو عكا ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا الى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور وقد فنى الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشهد ذلك من الساحل والناس فى تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون الى الله تعالى فى القضاء بتسليمها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ويدعو ربه بنصره وقد علم من شدة القوم مالم يعلمه غيره وفى قلبه مافي قلبه والله يثبته ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والاصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا سالمين الى ميناء البلد وتلقاهم أهل عكا تلقى الامطار عن جدب وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال

ذكر محاصرة برج الذباب

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذباب وهو برج فى وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء يحرس به المينا ومتي عبره المراكب أمن غائلة العدو فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صوارى البطس برجاً وملأوه حطبا على انهم يسيرون البطس فاذا قاربت برج الذباب ولاصقته احرقوا البرج الذى على الصارى والصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا في البطسة وقودا كثيراً حتى يلقى فى البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبوا بطسة ثانية

وملؤوها حطباً ووقوداً على أنهم يدفعون بها الى ان تدخل بين البطس الاسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من الميرة. وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتي اذا أحرقوا ما أرادوا احراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعداً لهم فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بطس المسلمين بها والبرج الذي أرادوا أن يحرقوا به من على برج الذباب فاوقدوا النار وضربوا فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالي وأراد واشتعلت البطسة التي كان بهاباسرها واجتهدوا فى اطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من المقاتلة الا من شاء الله واحترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ووثبت أصحابنا عليها فاخذوها اليهم. وأما البطسة التي كانت فيها القبو فانهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا باعظمها فانقلبت وهلك جميع من كان بها لانهم كانوا فى قبو لم يستطيعوا الخروج منها وكان ذلك من أعظم آيات الله وأندر العجائب فى نصرة دين الله. وكان يوما مشهودا

ذكر وصول الالمان الى عسكرهم المخذول

عدنا الي حديث ملك الالمان وذلك أنه اقام بطرابلس حتى استجم عسكره وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه اليهم وقد حموا من ذلك لان المركيس صاحب صور هورب مشورته وصاحب دولته وكان الملك جفري وهو ملك الساحل بالعسكر هو الذى يرجع اليه فى الامور فعلم انه مع قدوم الالماني لا يبقى له حكم. ولما كان العشر الآخر من شعبان

أزمع رأيه على المسير فى البحر لعلمه أنه اذلم يركب البحر نكب وأخذت عليه الطريق والمضايق فاعدوا المراكب وأنفذت اليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم وساروا يريدون العسكر فلم تمض الا ساعة من النهار حتي قامت عليهم ريح عاصف وثار عليهم الموج من كل مكان واشرفوا على الهلاك وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة وعاد الباقون يرصدون هواء طيباً فاقاموا أياما حتى طابت لهم الريح وصاروا حتى أتوا صور فاقام المركيس والالماني بها وأنفذوا بقية العساكر الي المعسكر النازل عكا واقاما بصور الي ليلة السادس من رمضان وسار الالمانى وحده فى البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم فى نفر يسير . هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم * ولقد كان لقدمه وقع عظيم من الطائفتين واقام أياما وأراد أن نظهر لمجيئه أثر فرنج القوم على طول مقامهم وحسن فى رأيه ان تضرب مصاف مع المسلمين نخوفوه من الاقدام علي هذا الامر وعاقبته فقال لا بد من الخروج على اليزك ليدوق قتال القوم ويعرف مراسهم ويتبصر بامرهم فليس الخبر كالعيان فخرج علي اليزك الاسلامي واتبعه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتي قطعوا الوهاد التي بين تلهم وتل العاضية وعلى تل العياضية خيم اليزك وهي نوبة الحلقه السلطانيه المنصورة فى ذلك اليوم فوقفوا على وجوههم وقاتلوهم واذا قوهم طعم الموت وعرف السلطان ذلك فركب من خيمته بحفلة وسار حتى أتى بل تل كيسان فلما رأى العدو العساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها واتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم عادنا كصا على عقبه وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم وهم هاربون حتى وصلوا المخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه

من شدة خوفه وفصل الليل بين الطائفتين وقتل من المسلمين اثنان وجرح جماعة كثيرة وكانت الكثرة على اعداء الله . ولما عرف ملك الالمان ماجري عليه وعلى أصحابه من اليزك الذى هو شرذمة من العسكر وهو جزؤ من كل رأي أن يرجع إلي قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ماهال الناظر اليه من شدة الخوف علي البلدواستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه فأحدثوا آلة عظيمة تسمي دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها الصور ولها رأس عظم برقبة شديدة من جديد وهي تسمي كبشا ينطح بها الصور بشدة عظيمة لانه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها . وآلة أخري وهي قبو فيه رجال السحب لذلك الا أن رأسها محدد علي شكل السكة التي يحرث بها ورأس البرج ومدور وهذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سنورا ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة. وأعدوا فى البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه فى السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الي المكان الذي ينقلب عليه تمشى عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذباب ليأخذوه به

﴿ ذكر حريق برج الكبش وغيره من الآلات ﴾

وذلك أن العدو لما رأي آلاته قد تمت واستكملت شرع فى الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وأهل البلد كلما رأوا ذلك واشتدت عزائمهم فى نصرة دين الله وقويت قلوبهم علي المصابرة . ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهى الذي قدمت به العساكر من الشام

فى أحسن زى واجمل ترتيب واكمل عدة مع ولده صاحب حلب وسابق الدين صاحب شيزر ومجد الدين صاحب بعلبك وكان السلطان التاث مزاجه الكريم بحمى صفراوية فركب فى ذلك اليوم وكان عيداً من وجوه متعددة وفى ذلك اليوم زحف العدو على البلد فى خلق لا يحصي عددهم الا الله فأهملهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذوو الآراء الثقفة من مقدمي المسلمين حتي نشبت مخاليب اطماعهم فى البلد وسحبوا آلاتهم المذكورة حتي قاربوا ان يلصقوها بالسور وتحصن منهم فى الخندق جماعة عظيمة واطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المنجنيق واقواس الرمى والنيران وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها * ورضوا بالصفقة الموعود بها وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم فى الخنادق واوقع الله الرعب فى قلوب العدو وأعطى ظهره الهزيمة واخذوا مشتدين هاربين * على اعقابهم ناكصين * يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ماشاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل وبقى فى الخندق خلق عظيم وقع فيهم السيف وعجل الله بأرواحهم الي النار ولما رأى المسلمون مانزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقاً شنيعاً وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل * والشكر للقوي الجليل * وسرت نار الكبش بقوتها الي السنور فاحترق وعلق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة فى السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتي حصلوه عندهم فى البلد وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة القى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام * وبلغنا من اليزك ان وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامى والقنطار مائة رطل والرطل الشامى بالبغدادي

أربعة أرطال وربع رطل * ولقد أنفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل انه ينطح به فيهدم مايلاقيه . وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ماسلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التى ضيعوا فيها نفقاتهم وتحيرت أبصار حيلهم واستبشر السلطان بغرة ولده واستبارك بها حيث وجد النصر مقرونا بقدومه مرة بعد اخرى . وثانية بعد أولي . ولما كان يوم الاربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنامن الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدو وضربوا البطسة المعدة لاخذ برج الذباب بقوارير نفط فاحترقت وارتفع لهبها فى البحر ارتفاعا عظيما وحزن الالمان لذلك حزنا شديدا وغشيته كآبة عظيمة ووقع عليهم خذلان عميم . ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر في طى كتاب وصل من حماه قد طار به الطائر من حلب يذكر فيه ان البرنس صاحب انطاكية خرج بعسكر نحو القرى الاسلامية التي تليه لشين الغارات عليها فبصرت به العساكر نواب الملك الظاهر فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم الا والسيف قد وقع فيهم فقتل منهم خمسة وسبعون نفرا وأسر خلق عظيم واستعصم بنفسه فى موضع يسمى شيحا حتى اندفعوا وسار الي بلده . وفي أثناء العشر الاوسط ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنمها المسلمون . وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد فأخذوه فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له ولم تزل الاخبار بذلك تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين ان العدو قد عزم علي الخروج الى العسكر الاسلامى خروج مصاف ومنافسه

والثالث مزاج السلطان بحمي صفراوية فاقتضى الحال تأخر العسكر الي جبل سفر عم * وكان انتقاله تاسع عشر رمضان فنزل السلطان على أعلى الجبل ونزل الناس على رؤس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل * وفى ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً شديداً بحميين مختلفتي الاوقات واستأذن فى الرواح فلم يؤذن له فاستأذن فى الانتقال الى الناصره فأذن له في ذلك اليوم وأقام الناصرة أياما عديدة بمرض نفسه فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان وتوفي رحمه الله وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده واستنزله عن بلاده التى كانت فى يده وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والاعمال وضم اليه بلد شهرزور أيضاً واستدعى الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه جابراً لخلل غيبته وأقام مظفر الدين فى نظرة قدوم تقى الدين . ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين

(ذكر قصة معز الدين)

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكي وهو صاحب الجزيرة اذ ذاك وكان من قصته انه حضر للجهاد وقد ذكرت تاريخ وصوله وانه أخذ منه الضجر والسآمة والقلق بحيث ترددت رسله ورقاعه الى السلطان فى طلب الدستور والسلطان يعتذر اليه بأن رسل العدو متكررة فى معنى الصلح ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب وهو لا يألو جهدا فى طلب الدستور الي ان كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وحضر سحر ذلك

اليوم فى باب الخيمة السلطانية فاستأذن في الدخول فاعتذر اليه بالتياث
كان قد عري مزاج السلطان فلم يقبل العذر وكرر الاستئذان فأذن له
فى الدخول فلما مثل بالخدمة استأذن فى الرواح شفاها فذكر له السلطان
العذر بذلك وقال هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها فانكب
علي يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن ألقوا
القدور فيها الطعام وقلعوا الخيم وتبعوه فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بانشاء
مكاتبة اليه يقول فيها « انك أنت قصدت الانتماء الى ابتداء وراجعتنى فى ذلك
مراراً وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك فقبلتك
وآويتك ونصرتك وبسطت يدك فى أموال الناس ودمائهم وأعراضهم
فانفدت اليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته واتفق وقوع هذه الواقعة
للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس وأقمت هذه المدة
المديدة وقلقت هذا القلق وتحركت هذه الحركة وانصرفت عن غير طيب
نفس وغير فصل حال مع العدو . فانظر لنفسك وأبصر من تنتمى اليه
غيرى واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالي الى جانبك التفات » وسلم الكتاب
الي نجاب فلحقه قريباً من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه
. وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعى الى الغزاة بسبب حركة مظفر
الدين على ما سبق شرحه فلقيه فى الطريق فى موضع يسمي عقبة ميق فرآه
محثا ولم ير عليه أمارات حسنة وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على
السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له ففهم الملك المظفر انفصاله من غير
دستور من السلطان وانه على خلاف اختياره فقال له المصلحة لك أن ترجع
الي الخدمة وتلازم الى أن يأذن لك وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الامر

فقال مايمكنني الرجوع فقال يرجع عن غير يد فليس فى الرواح على هـذ الوجه لك راحة أصلا فأصر على الرواح نخشي عليه وقال يرجع من غير اختيارك وكان تقى الدين شديد البأس مقداماً على الامور ليس فى عينه من أحد شيء فلما علم انه قابضة ان لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتي العسكر وخرج الملك العادل ونحن فى خدمته الى لقاء الملك المظفر فوجدنا معه فدخلا به على السلطان وسألاه الصفح عنه وطلب ان يقيم فى جوار تقى الدين خشية على نفسه فأذن له فاقام فى جواره الى حين ذهابه

(ذكر طلب عماد الدين الدستور)

وذلك ان عماد الدين زنكي عم المذكور ألح فى طلب الدستور وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له والسلطان يعتذر اليه بان الرسل متواترة بيننا وبين العدو فى الصلح وربما انتظم فينبغى أن يكون انتظامه بحضوركم فالرأي مشترك واستأذن في ان يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل وان يحمل اليه نفقة فلم يفعل وتكررت منه الرسل الى السلطان فى المعنى والسلطان يكرر الاعتذار . ولقد كنت بينهم فى شيء من ذلك وكان عند عماد الدين من علي العزم الرواح مايجاوز كل وصف وعند السلطان من إمساكه الي أن يفصل أمر بيننا وبينهم مالا يحد وآل الامر الي أن يكتب عماد الدين بخطه ويطلب فيه الاذن في الرواح وتلين فيها وتخشن فأخذها السلطان وكتبت فى ظهرها بيده الكريمة . من ضيع مثلى من يده . فليت شعري ما استفاد . فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعة بالكلية

(ذكر خروج العدو الى رأس الماء)

وتواترت الاخبار بضعف العدو ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى ان الغرارة من القمح بلغت في انطاكية ستة وتسعين دينارا صورية ولا يزيدهم ذلك الا صبرا واصرارا وعنادا . ولما ضاق بهم الامر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستامنين من شدة الجوع عزموا على الخروج الينا وكان طمعهم بسبب مرض السلطان فظنوا أنه لا يستطيع النهوض وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين ازوادا وخياما الى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام فاخبر رحمه الله بخروجهم علي هذا الوجه فأمر اليزك ان يتراجع من بين أيديهم الى تل كيسان وكان اليزك على العياضية وكان نزول العدو علي الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بانهم قد تحركوا للركوب وكان قد أمر الثقل في أول الليل ان يسيروا الى الناصرة والقيمون فرحل الثقل وبقي الناس وكنت في جملة من اقام في خدمته وأمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال وركب هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا وسار حتى وقف علي تل من حبال الخروبة وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ آخرها الجبل وسارت الميسرة حتي بلغ آخرها النهر بقرب البحر فكان في الميمنة ولده الملك الافضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر صاحب حلب وولده الملك الظافر صاحب بصرى وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم أخوه في طرفها ويليه قريبا منه حسام الدين لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري وحسام الدين

يشاره صاحب بانياس وبدر الدين دلدرم وجمع كثير من الامراء وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه وكان عماد الدين زنكي غائبا مع الثقل لمرض كان ألم به وبقي عسكره وكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب وجميع المهرانية والهكارية وخشترين وغيرهم من الامراء الاكراد وفي اتمام الحلقه السلطانية . وتقدم السلطان ان يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش وأن يدوروا حول العسكر واليزك معهم وأخفى بعض الاطلاب وراء التلال عساهم أن يجدوا عزة من العدو * ولم يزل عدو الله يسير والناس من جميع جوانبه وهو سائر على شاطيء النهر من الجانب الشرقي حتي رأس النهر وداروا حوله حتى عبروا الجانب الغربي ونزلوا والقتال بتلقف منهم الابطال * ويصرع منهم الرجال . وكان نزولهم على تل هناك وضربوا اخيامهم هناك ممتدة منه الى النهر وجرح منهم فى ذلك اليوم خلق عظيم وقتل منهم أيضا جماعة وكانوا اذا جرح واحد منهم حملوه أو قتل دفنوه وهم سائرون حتى لا يبين قتيل ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر وتراجعت العساكر الي مواطن المصابرة ومواقف الحراسة وتقدم السلطان الى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر والميمنة يستدير بالنهر من الجانب الشرقي والجاليش يقاتلهم بقربهم ويرميهم بالنشاب بحيث لا يقطع النشاب عنهم أصلا وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال وسار هو رحمه الله ونحن فى خدمته الي رأس جبل الخروبة فنزل فى خيمة لطيفة والناس حوله فى خيم لطاف بمرأي من العدو واجتاز العدو يتواصل ساعة فساعة الي الصبح . ولما كان يوم الاربعاء وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب فركب هو ورتب الاطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال

الخروبة اليهم بحيث يشاهد أحوالهم . وكان رحمه الله ملناث المزاج ضعيف القوي قوي القلب ثم بعث الي العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب وأمر الاطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الى أن تضاحى النهار وسار العدو الي شاطيء النهر من الجانب الغربي يطلب جهة جهة والقتال يشتد عليهم من كل جانب الامن جانب النهر والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم وقد جعلوا رجالتهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك أحد يصل اليهم الا بالنشاب فانه كان يظهر اليهم كالجراد وخيالتهم يسيرون فى وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد فى ذلك اليوم أصلا والكوسات تخفق والبوقات تنعر والاصوات بالتهليل والتكبير تعلو هذا والسلطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر التى عنده حتي لم يبق معه الا نفر يسير ونحن نشاهد الاحوال وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها وهى تسحب بالبغال وهم يذبون عن العلم وهو عال جداً كالمنارة خرقته بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتي وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق وقد ألجمهم العطش وأخذ منهم التعب وأثخنهم الجراح واشتد الامر بهم من شدة الحر . ولقد قاتل المسلمون فى ذلك اليوم قتالا شديدا وأعطوا الجهاد حقه وهجموا عليهم هجوما عظيما واستداروا بهم كالحلقة وهم لا يظهرون من رجالتهم ولا يحملون فكان الفعل معظمه للحلقة فى ذلك اليوم فانهم اذاقوهم طعم الموت وجرح منهم جماعة كاياز الطويل فانه قام فى تلك الحرب العظيمة اعظم مقام وجرح جراحات متعددة وهو مستمر علي القتال وجراح سيف الدين ياز كوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام

وشجعانه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ولم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق وقطعوا الجسر وأخربوه خوفا من عبور الناس اليهم ورجع السلطان الي تل الخروبة وأقام عليهم يزكا يحرسهم وأخبارهم تتواتر حتى الصباح وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم وكتب الي البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوهم من ذلك الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب * ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو على حركة الرحيل فركب السلطان ورتب الاطلاب وكف الناس عن القتال خشية أن يقتتلوا فان العدو كان قد قرب من خيمه وأداروا الاطلاب فى الجانب الشرقى من النهر تسير قبالة العدو حتي وصل الي خيمه * وكان ممن خرج من مقدميهم فى هذه السرية الكندهري والمركيس وتخلف ابن ملك الالمان فى الخيم مع جمع كثير منهم * ولما دخل العدو الي خيمهم كان لهم فيها أطلاب مستريحة فخرجت الى اليزك الاسلامى وحملت عليه ونشب القتال بين اليزك وبينهم وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم وقتل من المسلمين ثلاثة نفر وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره وكان عليه لباس لم ير مثله وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد وعاد السلطان الي مخيمه وأعاد الثقل الى مكانه وعاد كل قوم الي منزلتهم وعاد عماد الدين وقد أقلعت حماه وبقي الثبات مزاج السلطان وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة الامر بنفسه ولقد رأيته وهو يبكي في حال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ورأيته وهو

بأمر أولاده واحداً بعد واحد بمكافحة الامر ومخالطة الحرب * واقد سمعت منه وقائل يقول ان الوخم قد عظم فى مرج عكا بحيث ان الموت قد كثر فى الطائفتين ينشد متمثلا *

قتلاني ومالـكا * واقتلا مالـكامعي

يريد بذلك التي قد رضيت أن أتلف أنا اذا تلف أعداء الله وحدث بذلك قوة عظيمة فى نفوس العسكر الاسلامي

(ذكر وقعة الكمين)

وفي الثاني والعشرين من شوال رأي السلطان أن يضع للعدو كمينا وقوى عزمه على ذلك فاخرج جمعا من كماة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم أن يسيروا فى الليل ويكمنوا فى سفح تل هو شمالى عكا بعيد من عسكر العدو عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة اليه وان يظهر منهم للعدو نفر يسير وان يقصدوه فى خيمه ويحركوه حتي اذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا فكمنوا فيه . ولما تجلي نهار الثالث والعشرين خرج منهم بسير على جياد من الخيل وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخي لهم مقدار مائتى فارس وخرجوا اليهم شاكي السلاح على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم أحد راجل وداخلهم الطمع فيهم لقلة عددهم فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم ويقتلوا حتي أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الابطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد وهجموا عليه هجمة الأسود على فرائسها فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديداً ثم ولوا منهزمين فتمكن أولياء الله منهم وأوقعو

فيهم ضربا بالسيف حتى أفنوا منهم جماعة عظيما واستسلم الباقون للاسر فاسروهم
وأخذوا خيلهم وعددهم وجاء البشير الى العسكر الاسلامي فارتفعت الاصوات
بالتهليل وركب السلطان يتلقى المجاهدين وسار وكنت فى خدمته حتى
أتى تل كيسان فلقينا أوائل القوم فوقف هناك يتلقى العائدين من المجاهدين
والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على حسن صنيعهم وهو يعتبر الاسرى
ويتصفح أحوالهم . وكان ممن أسر مقدم عسكر الافرنسيس فانه كان قد
انفذ نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضاً وعاد السلطان بعد تكامل
الجماعة الي مخيمه فرحا مسرورا وأحضر الاسرى عنده وأمر مناديا ينادى من
أسر أسيرا فليحضر الناس أسرهم وكنت حاضرا ذلك المجلس . ولقد
اكرم المقدمين منهم وخلع عليهم وعلي مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاص
وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية فان البرد كان شديداً وكان قد
أخذ منهم وأحضر لهم طعاما أكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته
وكان يكارمهم فى كل وقت ويحضر المقدم على الخوان فى بعض الاوقات
وأمر بتنفيذهم وحملهم الي دمشق حملوا مكرمين وأذن لهم فى أن يراسلوا
صاحبهم وأن يحضرا لهم من عسكرهم مايحتاجون اليه من الثياب وغيرها
ففعلوا ذلك وساروا الي دمشق

﴿ ذكر عود العسكر عن الجهاد ﴾

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصاف وطاب
البلد وحصاره من شدة الامطار وتوترها أذن السلطان للعساكر فى العود
الى بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة وتجم خيولهم الى وقت العمل. وكان
أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق فى طلب

الدستور . وكان مسيره خامس عشرى شوال وسار عقيبه فى ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة هذا بعد أن أفيض عليها من التشريف والانعام والتحف عالم ينعم بة على غيرهما . وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل فى مستهل ذى القعدة مشرفا مكرما معه التحف والطرائف وتأخر الملك المظفر الي أن دخلت سنة سبع وثمانين وتاخر أيضاً الملك الظاهر وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين وسار الملك المظفر فى ثالث صفر ولم يبق عند السلطان الا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاصة. وفى أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفندار فلتقاه واكرم مثواه ووضع له طعاما يوم قدومه وباسطه مباسطة عظيمة . وكانت حاجته أن يوقع له باعادة أملاك كانت فى يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور فوقع باعادتها الي يده واجراء الامر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة وخلع عليه وشرفه وسار فرحا مسرورا شاكرا لايا ديه

(ذكر ارحال السلطان لادخال البدل الى البلد)

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ورفع ما كان له من الشواني فى البحر الى البر اشتغل السلطان فى ادخال البدل الي عكا وحمل اليها الذخائر والنفقات والعدومنها واخراج من كان بها من الامراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهاراً وكان مقدم البلد من البدل الداخل الامير سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم من شهور سنه سبع وثمانين وفى ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء وأعيان الخلق وتقدم الى كل من دخل أن يصحب ميرة السنة وانتقل الملك

العادل بعسكره الي حيفا على شاطىء النهر وهو الموضع الذى تحمل منه المراكب فتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج اليه فاقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق اليها العدو من يعترضها وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر محملة وتقدم السلطان بتعبيتها من مدة مديدة وكان دخولها ثاني ذي الحجة من السنة الخالية فانكسر منها مركب على الصخر الذى هو قريب من الميناء فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى تلقي البطس . ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الي البلد في جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالي وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين * وأما البطس فان البحر هاج هياجا عظيما وضرب بعضها على الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها * قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة وذلك بتقدير العزيز العليم ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم واحرج السلطان بذلك حرجا عظيما فاستخلف ذلك في سبيل الله تعالي وما عند الله خير وأبقى * وكان ذلك أول علامات اخذ البلد والظفر به * ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الحالية قضى الله وقدر ان وقع من السور قطعة عظيمة وثقلها على الباشورة فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة وهى العلامة الثانية وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف هياجا عظيما وجاؤا الي البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب وثارت همم الناس في البلد وقاتلوا العدو قتالا شديداً حتى ضرسوا وأيسوا من ان ينالوا خيرا فوقفوا على سد موضع القطعه الواقعة وجمعوا من في البلد من البنائين والصناع ووضعوهم في ذلك الموضع وحموهم بالنشاب والمناجيق فما مرت الا ليال يسيرة حتى

انتظمت وعاد بناؤها أحسن مما كان أقوى واتقن

﴿ذكر الظفر بمراكب العدو﴾

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان نحن نخوض البحر فى براكيس وبطس الى العد ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فاذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا وهو المركب الصغير فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو وهى قاصدة الى عسكرهم وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فوقع عليها البركوس وقاتلوهم حتى أخذوهم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان وذلك فى ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة من فضة فاعطاهم السلطان الجميع ولم يأخذ منهم شيأ وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بايديهم *

(ذكر موت ابن ملك الالمان)

وذلك ان العدو لما دخل الشتاء عليهم وتواترت الانداء واختلفت الاهواء وخم المرج وخما عظيما وقع معه موتان عظيما وانضم الي ذلك الغلاء الزائد وانسد عليهم البحر الذى كان يجيئهم منه الميرة من كل جانب وكان يموت منهم كل يوم المائة والمئتان على ماقيل وقيل اكثر من ذلك * ومرض ابن ملك الالمان مرضا عظيما وعرض له مع ذلك مرض الجوف فهلك به في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين وحزن الافرنج عليه حزنا عظيما واشعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة إلا واشعلت فيها الناران والثلاثة

بحيث بقي عسكرهم كله نار وفرح المسلمون بذلك بمثل ماحزن الكفار بفقده.
وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط ومرض الكندهرى وأشرف على الهلاك
* وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيها نيف وخمسون نفرا
وفى الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس وجميع مافيه وكان من
جملة مافيه ملوطة مكانة باللؤلؤ وهى من تفاصيل الملك وقيل كان فى البركوس
ابن أخيه وأخذ أيضا .

(ذكر غارة أسد الدين)

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين
شيركوه الكبير وهو صاحب حمص . وكان من حديثه ان السلطان كان قد
رسم له أن يأخذ حذره من الافرنج بطرابلس ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين
والفلاحين فى تلك الناحية وأنه قيل له ان افرنج طرابلس قد أخرجوا اجشارهم
وخليهم الي مرج هناك وابقارهم ودوابهم وانه قد قرر مع عسكره قصدهم
فخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم الخيل أربعمائة راس
ومئة من البقر فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقى وعاد الي البلد ولم يفقد
من أصحابه أحد ووصل الكتاب بذلك فى رابع صفر من سنة سبع وثمانين

(ذكر وقائع عدة فى هذه السنة)

وفي ثالث ربيع الاول كان اليزك للحلقة السلطانية وخرج من العدو
اليهم خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة وقتل
منهم رجل كبير على ماقيل ولم يفقد من المسلمين الا خادم للسلطان يسمي
فراقوش وكان شجاعا عظيما له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم

* وفي تاسع الشهر بلغ السلطان أن العدو يخرج منه طائفة يتفسحون لبعدنا عنهم فاقتضى رأيه أن أنفذ أخاه الملك العادل وفى خدمته خلق عظيم من العساكر الاسلامية وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذى كانت فيه الواقعة المعروفة به فسار هو وجمع كان من كبراء أهله واصحابه فكمن وراء تل العاضية وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الافضل ولده ومعه صغار أولاد الملك الاشرف محمد والملك المعظم طور أنشاه والملك الصالح اسماعيل وكان من المعممين الفاضل والديون وكنت فى الصحبة فى ذلك اليوم وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد وناوشوا العدو فلم يخرج فى ذلك اليوم وكان قد وشي اليهم بحاية الامراء الا ان ذلك اليوم لم ينفك الا بنوع نصرفانه وصل فى اثنائه خمسة وأربعون نفراً من الافرنج كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا الى السلطان ووصلوا فى ذلك اليوم الي ذلك المكان . ولقد شاهدت منه رقة قلب لم ير أعظم منها وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن فى السن لم يبق فى فمه ضرس ولم تبق له قوة الا مقدار تحرك لا غير فقال للترجمان قل له ما الذي حملك على المجيء وانت في هذا السن وكم من ههنا الى بلادك فقال بلادي بيني وبينها عدة اشهر . وأما مجيئي فانما كان للحج الي القيامة فرق له السلطان ومن عليه وأطلقه وأعاده راكبا على فرس الي عسكر العدو . ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم فى قتل أسير فلم يفعل فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم بما طلبوه فقال لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر . ولما أيس من خروج العدو عاد المخيم في عشية ذلك اليوم

ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح الباب وطاب الزمان وجاء أوان عود العساكر الي الجهاد من الطائفتين فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر وكان شيخا كبيراً مذكوراً له وقائع ذا رأى حسن والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة * ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فخر شاه وهو صاحب بعلبك وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب * وأما عسكر العدو فانهم كانوا يتواعدون البزك ومن يقاربهم بقدوم الملك الفرنسيس وكان عظيما عندهم مقدما محترما من كبار ملوكهم تنقاد اليه العساكر بأسرها بحيث اذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم في ست بطس تحمله وميرته وما يحتاج اليه من الخيل وخواص أصحابه وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس مارأيت بازيا أحسن منه وكان يعزه ويحبه حبا عظيما فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيئه حتى سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وأنفذوه الي السلطان وقد كان لقدومه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الافرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا وقدم بعد ذلك كندفرند وكان مقدما عظيما عندهم مذكوراً فذكروا انه حاصر حماه وحارم في عام الرمله * ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية ان

كان جماعة من المستأمنين قد أعطوا برا كيس ليكبسوا عليها فى البحر من العدو فاخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيدلهم وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة فى بيعة قريبة من البحر وأنهم صلوا معهم صلاة العيد وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من البيعة من الرجال والنساء وأخذوهم عن آخرهم حتي القس وحملوهم والقوهم فى مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية وكان من جملةما كان فيهاسبعةوعشرون امرأةواموال عظيمة فتقسموها فوصل الى كل واحد على ماقيل أربعة آلاف درهم من الفصة النقرة وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق فى سابع عشر ربيع الآخر وهجم أصحابنا على غنم العدو فاخذوها وكان عددهامائةوعشرين راسا فركب فى طلبها الراجل والفارس فلم يظفروا منها بشيء *

(ذكر ملك الانكتار)

وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم فى الملك والمنزلة لكنه اكثر مالا منه وأشهر فى الحرب والشجاعة *وكان من خبره أنه وصل الي جزيرة قبرص ولم ير ان يتجاوزها الاوان تكون له وفى حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما وقاتلهم قتالا شديدا فأنفذ الانكتار الي عكا يستنجد اليه الملك جفرى أخاه ومعه مائة وستون فارسا ليعينوه على مقصوده وبقيت الافرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين * وفي سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت انه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحوعسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك

وفيها أربعون فارساً وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون*وفي رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم فاعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل الى مضايقة العدو ومقاربته وأصبح على أهبة المسير الى العدو ورتب العساكر ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الي خنادقهم وصعد جبلا كان يعرف بتل الفضول قريباً من العدو مشرفاً على خيمهم وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها وما هو بطال ثم عاد الى مخيمه وأنا في خدمته وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قط أخذ من امه سرقة .

(ذكر قصة الرضيع)

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون الي خيام العدو فيسرقون منهم الرجال وكان من قصتهم انهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر وساروا به حتى أتوا الي خيمة السلطان وعرضوه عليه وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ماأخذوه * ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا أنه رحيم القلب وقد أذنا لك فى الخروج فاخرجى واطلبيه منه فانه يرده عليك فخرجت تستغيث الى اليزك فاخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وانفذوها الي السلطان فلقيته وهو راكب وأنا فى خدمته وفى خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها فى التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عيله وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع فى السوق فارتده وأمر

بدفع ثمنه الي المشترى وأخذه منه ولم يزل واقفاً حتي أحضر الطفل وسلم اليها فاخذته وبكت بكاء شديداً وضمته الي صدرها والناس ينظرون اليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فارضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس والحقت بعسكرهم مع طفلها فانظر الي هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاكرام وانظر الي شهادة الاعداء له بالرأفة والكرم شعر

ومليحة شهدت لها ضراتها والحسين ليس لحقه من منكر

وفي ذلك اليوم وصل ظهر الدين بن البلنكرى وكان مقدما عظيما من أمراء الموصل وصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ولما عاد السلطان الي مخيمه لم يلبث الا ساعة حتي وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين *

* ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية *

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادي الاولي بلغ السلطان ان الافرنج قد ضايقوا البلد وركبوا المناجيق فامر الجاويش أن صاح بالناس وركب لركوبه العسكر راجلهم وفارسهم حتى أتي الخروبة وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر اليه فلم يخرج العدو واشتد زحفهم علي البلد فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة وهجم عليهم في خنادقهم ولم يزل كذلك حتى عادوا من الزحف ظهر نهار وعاد العدو الى خيمه وقد أيس من أمر البلد وعاد السلطان الي خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل فيها من الشمس فنزل بها الصلاة الظهر والاستراحة ساعة وقوي اليزك وأمر الناس بالعود الى المخيم لأخذ جزء من الراحة وكنت في خدمته فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من

أخبر ان القوم قد عادوا الي الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولا فامر من نبه الناس وأمر بالعود فتراجعت العساكر الي جهة العدو أطلابا أطلابا وأمر بالمبيت علي أخذ لامة الحرب وأقام هو هناك على عزم المبيت وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء وعدت الى الخيم وبات هو وجميع العسكر على تعبية القتال طول الليل واصر طائفة منهم على مضايقة العدو ثم سار العسكر أواخر ليلة الاربعاء عاشر الشهر الي تل السياضية قبالة العدو وضربت له عليه خيمة لطيفة ونازل العدو فى ذلك اليوم جمع بالقتال الشديد والضرب المبرح المتواتر الذي لا يفتر شغلا لهم عن الزحف وهو يدور بين الاطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه . ولما رأي العدو تلك المنازلة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم فى خيمهم فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم . ولما رأي فتورهم عن الزحف عاد الي العياضه ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة اذا رجعو الى الزحف كل ذلك دفعاً للعدو عن مضايقة البلد والزحف عليه

(ذكر الشروع فى مضايقة البلد)

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتي دوابهم باسرها وآل الامر الى ان كانوا يلقون فيه موتاهم وكانوا اذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مثخنة القوه فيه بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد * و ما أهل البلد فانهم انقسموا أقساما قسم ينزلون فى الخندق يقطعون الموتي والدواب التى يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها . وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه فى البحر * وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك وقسم فى المنجنيقات وحراسة الاسوار وأخذ منهم

التعب والنصب وتواترت شكايتهم من ذلك * وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ولا يصبر عليه جلد . وكانوا يصبرون والله مع الصابرين ا. هذا والسلطان لا يقطع الزحف على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الاثر البين وكلما ازدادوا فى قتال البلد ازداد هو في قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه فلما أخبر السلطان بذلك قال ان كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد فاما نحن فليس لنا اليكم حاجة ولا شغل ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكتار *

(ذكر وصول الانكتار)

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان قدومه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد وأظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم اوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل علي عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون فيما يفعلوه من مضايقة البلد حتي قدومه فانه ذو رأى في الحرب مجرب وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة * هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه *

(ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة علي أخذ البلد)

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والاسلحة والمسير والرجال والابطال المقاتلة وكان

السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيما حتى تدخل البلد مراغمة للعدو وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائه وخمسين رجلا فاعترضها الانكتار في عدة شواني قيل كان فيها أربعون قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بان وقف الهواء فقاتلوها قتالا عظيما وقتل من العدو عليها خلق عظيم وأحرقوا للعدو شانياً كبيراً فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيداً شجاعاً مجربا في الحرب فلما رأى أمارات الغلبة عليهم وانهم لا بد وان يقتلوا قال والله لا نقتل الاعن عزم ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيأ فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها عن جانب أبوابا فامتلأت ماء فغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الي الشواني من البحر وخلصوه من الغرق وأنفذوه الي البلد ليخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزناً شديداً والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله والصبر على بلائه والله لا يضيع أجر المحسنين

﴿ ذكر حريق الدبابة ﴾

وذلك ان العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الطبقة الاولي من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلوا على السور وكان يركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيما وحدثتهم نفوسهم بطلب الامان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد

برأى العين وأخذ أهل البلد فى تولية ضربها بالنفط ليلا ونهاراً حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء فاشتدت الاصوات بالتهليل والتكبير ورأوا الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران ولقوا جبرا من ذلك الوهن ومحوا لذلك الاثر ونعمة بعد نقمة وايناسة بعد يأس وكان ذلك فى يوم غرق البطسة فوقع من المسلمين موقعاً عظيما وكان مسلياً لحزنهم

﴿ ذكر وقعات عدة ﴾

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر زحف العدو على البلد زحفا عظيما وضايقوه مضايقة شنيعة : وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم فضربوا كؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان وركبت العساكر وضايقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم فى خيامهم فجاوزوا خنادقهم وأخذوا القدور ومافيها وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان وأنا حاضر ولم يزل القتل يعمل حتى أيقن العدو انه قد هجم عليه فأخذوا يتراجعوا عن قتال البلد وشرعوا فى قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة وغشي الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين وتراجعت الطائفات الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب والحر

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون دق كؤوس البلد فجاوبه كؤوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين ولج العدو فى مضايقة البلد ثقة منهم أن الناس لا يهجمون على خيمهم وانهم يهابونها فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً ونهبوا منها فتراجع العدو الى قتالهم ووقع

الصياح فيهم فلحقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم
وجري بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة وقتل
جماعة من العدو . وأعجب مافي هذه الوقعة انه كان وصل فى هذا اليوم رجل
كبير مذكور من أهل مازندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة فلقى
السلطان فاستأذنه في الجهاد وحمل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة
. ولما رأى العدو دخول المسلمين الى خنادقهم وتوغلهم الي داخل أسوارهم
داخلهم الحمية وبعثتهم النخوة فركب فارسهم وصحبه راجلهم وخرجوا الي
ظاهر أسوارهم وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثبوتا
عظيما لم يتحركوا من أماكنهم والتحم القتال من الجانبين واشتد الضرب من
الطائفتين وصبر المسلمون صبر الكرام . ودخلوا فى الحرب بالتحام . فلما رأي العدو
ذلك الصبر المعجب والاقدام المزعج أنفذوا رسولا فى غضون ذلك يستأذنون
بالرسول فى الوصول فأذن له فوصل الرسول أولا الى الملك العادل فاستصحبه
ووصل به الى الخدمة السلطانية ومعه أيضاً الملك الافضل فأدي الرسالة وكان
حاصلها أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان فلما سمع السلطان الرسالة
أجاب عنها في الحال من غير تفكر ولا ترو بأن قال ان الملوك لا يجتمعون
الا عن قاعدة ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة واذا أراد ذلك
فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ولا بد من ترجمان نثق به
فى الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر فايكن بيننا ذلك الترجمان
فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى
ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب
البحر شمالى البلد وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر وانتشب القتال

بين الطائفتين وقتل من المسلمين بدوى وكردي وقتل من العدو جماعة وأسروا واحداً بسلاحه وفرسه ومثل بين يدى السلطان ولم نزل القتال يعمل حتي حال الليل بين الطائفتين * ولما كان الاحد التاسع والعشرون خرج العدو برجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو فلقيهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ووصلت رجالة من المسلمين الى الحرب فأسروا مسلما وقتلوه وأحرقوه وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه واحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان فى زمان واحد * ولم نزل الاخبار تتواصل من أهل البلد بالاشتغال بأمر العدو والشكوى من ملازمة قتالهم ليلا ونهارا وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من جريرة قدوم الانكتار ثم مرض مرضاً شديداً أشفي فيه علي الهلاك وخرج الفرنسيس ولم يزدهم ذلك الا اصراراً وعتواً وكان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان فى الباطن كانا فى خدمتها فى صقلية وكانت هي زوجة صاحب صقلية فلما مات ومر أخوها بالبلد أخذها واصحابها معه الى العسكر وهرب الخادمان الى العسكر الاسلامي فقبلهما السلطان وأنعم عليهما انعاما عظيما

(ذكر هرب المركيس الى صور)

ولما كان يوم الاثنين سلخ جماذي الاولي قوى استشعار المركيس أنه ان أقام قبضوا عليه وأعطوا صور للملك القديم الذى كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر فى نصرة دين المسيح. ولما صح ذلك عنده هرب الي صور فانفذوا خلفه قسوساً ليردوه فلم يفعل وسار فى البحر حتى أتي صور وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فانه كان ذا رأى وشجاعة وخبرة *

﴿ ذكر وصول بقية عساكر الاسلام ﴾

وفى سلخ جمادي الاولى قدم عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين برتقش فلقيه السلطان واحترمه وكان ديناً عاقلا محبا للغزو فانزله السلطان فى الميسرة بعد أن اكرمه وانزله فى خيمته وفرح بقدومه فرحا شديدا فى ذلك الوقت ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة عظيمة ثم قدم بعد ذلك علاء الدين صاحب الموصل وعسكرهم فلقيه السلطان بالخروبة ونزلوا هنالك الي بكرة اليوم الثاني من جمادي الآخرة وأصبح سائرا حتى أتي بجحفلة قبالة العدو وعرض عسكره هناك وانزله السلطان فى خيمته وحمل له من التحف وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه وانزله فى الميمنة * وفى الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا * واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الافرنج شدته عن الزحف وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى فان البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما وضاق بهم الخناق وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل * هذا واللصوص يدخلون الي خيامهم ويسرقون أقمشتهم ويأخذون الرجال فى غفلة بان يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ويوقظوه ويقولوا له بالاشارة ان تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجوا به الي العسكر وجرى ذلك مرارا وعساكر المسلمين تجتمع وتتواتر من كل جانب حتى تكامل وصولها

﴿ ذكر وصول رسولهم الي السلطان ﴾

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أن

يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاودا في المعني وكان في حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الي السلطان واستقر أنه رأي أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما أذن في ذلك تأخر الرسول اياما عنده بسبب مرضه واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وانكرو عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لا تظن تأخري بسبب ما قيل فان زمام قيادي مفوض الى وأنا احكم ولا يحكم على غير أن في هذه الايام أعترى مزاجي التياث منعني من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا وعندى ما يصلح للسلطان وانا أستخرج الاذن من ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد اذن في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضي الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاج حتي نطعمها لتقوي ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيها فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الي فراريج ودجاج ويريدان يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على ان قال الرسول ما الذى أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبنا كم أنتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادي الاخرى فخرج رسول الانكتار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهداه الي السلطان فقبله واحسن اليه وأعاده مشرفا مكرما الي صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضا*

(ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته)

ولم يزالوا يوالون على الاسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتي خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلا ولا نهارا والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الاسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن ولما أحس العدو بذلك وظهر لهم تخلل السور وتقلقل بنيانه شرعوا فى الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما وتناوبوا فرقا كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه وشرعوا فى ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر * هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهاراً * ولما علم السلطان ذلك باخبار من يشاهده واظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهى دق الكؤوس ركب وركب العسكر اليهم وجري فى ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين وهو كالوالدة الثكلي يجول بفرسه من طلب الي طلب ويحث الناس على الجهاد * ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه فى ذلك اليوم مرتين والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه وينادى يا للاسلام وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر الي عكا وماحل بها من البلاء وماجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد فى الزحف والحث على القتال * ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاما البته وانما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب وتأخرت عن حضور هذا الزحف لالمام مرض شوش مزاجى لما عراني فكنت فى الخيمة فى تل العياضية وأنا أشاهد الجميع * ولما هجم الليل عاد رحمه الله الى الخيم بعد العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة

والحزن فنام لاعن عفو .

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكؤوس أن دقت وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفى ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها انا قد بلغ منا العجز الي غاية ما بعدها الا التسليم ونحن فى الغد ثامن الشهر ان لم تعملوا معنا شيأ نطلب الامان ونسلم البلد ونشترى مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكي فى قلوبهم فان عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الاسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزما بحراستها منذ نزل العدو عليها وأصاب السلطان مالم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع اليه فى جميع ذلك صابرا محتسبا ملازما مجتهداً والله لا يضيع أجر المحسنين فرأي الدخول علي القوم ومهاجمتهم فصاح فى العساكر الصائح وركبت الابطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم علي الهجوم على العدو فان رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبوك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض اطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ﴿ولقد حكى﴾ بعض من دخل عليهم أسوارهم انه كان هناك راجل واحد افرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين والي جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال انه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه

زراق مسلم بقارورة فارقه (ولقد حكى) لي شيخ عاقل جندى انه كان من جملة من دخل قال وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زلت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملنا الى السلطان فعجب من ذلك عجبا عظيما ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتي فصل بينهم الليل *

﴿ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والافرنج﴾

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من جانب وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع وتمكن العدو من الخنادق فملكوها وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعدا وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الاكراد فقتله وقتل الخمسة الاخرى وفى الغد نادي الافرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الافرنج لذلك حزناً عظيما وطلبوا الزحف بعد ذلك أياما ثلاثة

وبلغنا أن سيف الدين المشدوب خرج بنفسه الى ملك الفرنسيس بالامان وقال له قد أخذنا منكم بلادا عدة وكنا نهجم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم الي مأمنهم واكرامهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا فأجابه بان هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منا وأنتم أيضا مماليكي وعبيدى فأري فيكم رأيي وبلغنا ان المشطوب بعد

ذلك أغلظ له فى القول وقال أقاويل كثيرة فى ذلك المقام منها انا لا نسلم البلد حتى نقتل باجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كبارکم وانصرف عنه *

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا فى البلد فأخذوا بركوساور كبوافيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامى منهم أرسل وابن الجاولي وسنقر الوشاقي فأما أرسل وسنقر فانهما تغيبا فى العسكر ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما ابن الجاوي فظفر به ورمي فى الزردخانة

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يواصل كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن ذلك وقالوا نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة في ذلك

وفى ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً وذكروا أن مقدم الاسبتار يخرج فى الغد يتحدث فى معنى الصلح غير أن السلطان اكرمهم سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة الي عسكرهم

وفى ذلك اليوم تقدم الي صارم الدين قايماز النجمى حتى يدخل هو وأصحابه الي أسوارهم وترحل جماعة من أمراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو المشطوب وزحفوا حتى وصلوا أسوار الافرنج ونصت قايماز بنفسه علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار ووصل فى ذلك اليوم عز الدين جرديك النورى وسوق الزحف قائم فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديداً واجتهد الناس اجتهاداً عظيما

وفى العاشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والعساكر الاسلامية محدقة بهم وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين عسى أن تمكنهم مساعدة اخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا علي طرف من الافرنج فيكسروهم ويخرجوا يحمى بعضهم بعضا ويخرج العسكر يجاوبهم من هذا الجانب فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم فلم يتهيأ لهم فى تلك الليلة خروج بسبب انه كان هرب منهم بعض الغلمان فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك العادل وتحادثوا معه ساعة زمانية وعادوا ولم ينفصل الحال وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج فى مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث إنهم اعتقدوا ربما كان مصاف واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكروا انه صاحب صيدا طليق السلطان فحضر العدل وجري مبادي أحاديث فى معني اطلاق العسكر الذى بعكا واشتطوا فى ذلك اشتطاطا عظيما وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال

﴿ ذكر كتب وصلت من البلد ﴾

ولما كان يوم الاحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها انا قد تبايعنا على الموت ولا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء فانظروا أنتم كيف تعملون فى شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمنا

وايا كم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فانا نحن قدفات أمرنا وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الافرنج ان عسكرا عظيما عبر الي عكا وسلم وصار فيها قال وجاء انسان افرنجي فوقف تحت السور وصاح الي بعض من على السور وقال له بحق دينك الا ما أخبرتني كم عدد العسكر الذى دخل اليكم البارحة يعني ليلة السبت وكان قدوقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة فقال له ألف فارس فقال لا لكنه دون ذلك أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضرا

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم فى تلك الايام بعد ان كان قد أشرف البلد على الاخذ * وفي يوم الخميس سادس عشر وصل أسد الدين شيركوه واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره وجاهد المقيمون فيه وبنوا عوض الثلم سوراً من داخلها حتى اذا تم بناؤه اقتتلوا عليه * واشتد ثبات الافرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى يطلق جميع الاسارى الذين في أيدى المسلمين وتعاد البلاد الساحلية اليهم وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا وبذل لهم أيضا مع ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا واشتد عتوهم واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم ومكروا والله خير الماكرين *

﴿ ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم ﴾

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة خرج العوام من الثغر ونطقت الكتب عنهم ان أهل البلد ضاق بهم الامر وكثرت الثغر وعجزوا عن الحفظ والدفع وراوا عين الهلاك وتيقنوا انه متي أخذت البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير

ذلك فصالحهم على ان يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومئتي الف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الاحوال ومائة فارس معينين من جانبهم يختارول وصليب الصلبوت ويخرجون بانفسهم سالمين وما معهم من الاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار لانه كان واسطة ولاصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك

(ذكر استيلاء العدو على عكا)

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك انكارا عظيما وعظم عليه هذا الامر وجمع ارباب المشورة وشاورهم فيما يصنع واضطرب الامراء وتقسم فكره وتشوش وعزم علي ان يكتب في الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو في مثل هذا الحال فما أحسن المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادي الاخري سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح الافرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة انا لله وانا اليه راجعون وغشى الناس بغتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب وكان لكل قلب حظ في ذلك قدر ايمانه ولكل انسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته وانقشعت الحال على انه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الافرنج علي ذلك الحال المتقدم وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علما على القلعة وعلما علي مأذنة الجامع في يوم الجمعة وعلما على برج القتال عوضا عن علم الاسلام وحيز المسلمون الي بعض أطراف البلد وجري

على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه ومثات فى خدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى * والمولهة الحراء فسليته عما تيسر من التسلية وأذكرته فى الفكر فيما يستقبله من الامر فى معني البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال فى ذلك واعمال الفكر فى خلاص المسلمين المأسورين فى البلد وذلك فى ليلة السبت الثامن عشر وانفصل الحل على أن رأي التأخير عن تلك المنازلة مصلحة فانه لم يبق فى المضايقة معنى فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التى كان عليها أولا بشفرعم وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالي انه ربما حملهم غرورهم بالخروج اليه والهجوم عليه فينال منهم غرضاً ويلقى نفسه عليهم ويعطى الله النصر لمن شاء فلم يفعل العدو شيئا من ذلك واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه فقام الي بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل الى الثقل وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش وكان رجلا عاقلا مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال والاسرى فقاموا ليلة مكرمين وساروا الي دمشق يبصرون الاسارى فى الحادي والعشرين وانفذ السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة *

(ذكر وقعة جرت فى أثناء ذلك)

ولما كان سلخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر شمالي البلد وانتشروا انتشاراً عظيما راجلهم وفارسهم وضربوا اطلابا للقتال فاخبر اليزك بذلك السلطان فدقي الكؤوس وركب وانفذ الى اليزك وقواه برجال كثيرة وتوقف

حتى ركبت العساكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك وكان اليزك قد قوى بما أنفذ اليه فحملوا علي العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم وانهزمت الخيالة وسلمت الرجالة وظنوا أن وراء اليزك كمينا فاشتدوا نحو خيامهم ووقع اليزك فى الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفراً ولم يزل السيف يعمل فيهم حتي دخلو خنادقهم

وفى ذلك اليوم وصل رسل الافرنج الذين ساروا الي دمشق ليتفقدوا حال أسراهم ووصل معهم من مميزى أسراهم أربعة نفر ووصل في عشيته أيضا رسل السلطان في تحرير أمر الاساري المسلمين الذين كانوا بعكا ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب.

(خروج ابن باريك)

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب الانكتار فاخبرني أن الملك افرنسيس سار الى صور وذكروا فى تحرير أمر الاساري وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وانه فى العسكر أو حمل الي بغداد فاحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا انفوسهم الى الارض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ماوقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم* ثم أرسل السلطان رسولا الى الفرنسيس سار اليه الي صور بهدا ياسنية وطيب كثير وثياب جميلة

وفى صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه الى تل ملاصق لشفرعم ونزلت العساكر فى منازلها علي حالهم قريبا من منزلته

اولى ليس بينهما الا الوادى ولم تزل الرسل تتواتر فى تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الاسرى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة الف دينار وستمائة أسير وانفذوا ثقاتهم وشاهدوا الجميع ماعدا الاسارى المعينين من جانبهم فانهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضرون الزمان حتى انقضى الترم الاول فى ثامن عشر رجب ثم انفذوا فى ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان اما أن تنفذوا الينا أصحابنا وتستلموا الذي عين لكم من هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقى تصل اليكم فى ترومكم الباقية وأما ان تعطونا رهائن على ما نسلم اليكم الى ان يخرج الينا أصحابنا فقالوا لا نفعل شيأ من ذلك بل تسلمون الينا ما يقضيه هذا الترم وتقنعون بأيماننا حتى نسلم اليكم اصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم ان تسلموا المال والصليب الاسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد ينجبر *

(ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله)

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والاسرى والصليب غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال وانه ان دفع السلطان اليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونسائهم وان امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والاسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيل فى وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الآبار التى تحت تل العياضية

وقدموا خيامهم اليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته فى ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف فى الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا ضربا وطعنا بالسيف والبزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم وكان البزك قد أنفذ الى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ الى البزك من قواه وبعدان فرغوامنهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ودام القتال الى أن فصل الليل بين الفريقين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدا الشهداء فى مصارعهم وعرفوا من عرفوه منهم فغشى المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ولم يبقوا الا رجلا معروفاً مقداما أو قوى يد لعمارهم * وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهم فى مقابلة من قتل منهم وقيل ان الانكتار كان قدعزم على السير الي عسقلان للاستيلاء عليها فمارأي أن يخلف تلك العدة فى البلد وراءه والله أعلم

* ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى طرف البحر من جانب الغرب *

ولما كان التاسع والعشرون من رجب الافرنج بأسرهم وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم وساروا حتي قطعوا النهر الي الجانب الغربي وضربوا الخيام على طريق عسقلان وأظهروا العزم على المسير على شاطىء البحر وأمر الانكتار باقي الناس أن يدخلوا الى البلد وكانوا قدسدوا ثغره وثلمه أوأصلحوا ما انهدم منه وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكتار وجمع عظيم من الرجالة والخيالة * ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران

العدو في سحر ذلك اليوم وعادتهم انهم اذا ارادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم وأخبر اليزك بحركاتهم فامر السلطان الثقل ان يرفع حتى يبقي الناس على ظهر ففعل الناس ذلك وهلك من الناس قماش كثير وحوائج كثيرة من السوقة لم تكن معهم خيل ولا ظهر يحمل جميع ما عندهم لان كل انسان كان يحصل ما يحتاج اليه فى أشهر وكل واحد من السوقة عنده ما ينفذ من منزل الى منزل فى مرار متعددة لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الافرنج الذين بعكا والخوف منهم * ولما أن علا النهار شرع العدو فى السير على جانب البحر وتفرقوا قطعا كثيرة كل قطعة تحمى عن نفسها وقوى السلطان اليزك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا وانفذ ولده الملك الافضل يخبر انه قطع طائفة منهم عن الموافقة ولقد نازلناهم بالقتال ولو قوينا لأخذناهم فسير السلطان خلقا عظيما من العسكر وسار هو بنفسه وأنا في خدمته حتي أتي أوائل الرمل فلقينا الملك العادل فأخبر أخاه ان تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الاولي ومعظم القوم قد عبروا نهر حيفا وقد نزلوا والباقون قد لحقوا بهم وليس للمسير ورأءهم حاصل الا اتعاب العسكر وضياع النشاب لا غير فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك وأمر طائفة من العسكر ان تسير وراء الثقل تلحق ضعيفهم بقويهم وتكف عنهم أن يلحق بهم من العدو والطماعة وسار هو حتي وصل الي القيمون عصر ذلك النهار فنزل وضرب له الدهليز وشقدائرة حوله لا غير واستحضر الجماعة فاكلوا شيأ واستشارهم فيما يفعل

المنزل الثاني . اتفق رأي جماعة علي انهم يرحلون بكرة غد. هذا وقد رتب حول الافرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره . ولما كان صباح ثاني

شعبان رحل السلطان الثقل وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل منهم شيء الى أن علا النهار فسار فى أثر الثقل حتى أتي قرية يقال لها الصباغين فجلس ساعة يترقب أخبار العدو وكان قد خلف جرديك قريب العدو وتعقب خلق عظيم بانوا قريب العدو فلم يصله خبر أصلا فسار حتى أتى الثقل فى منزلة يقال لها عيون الاساود ولما بلغنا المنزل رأي خياما فسأل عنها فقيل انها خيام الملك العادل فعدل لينزل عنده فأقام عنده ساعة ثم أتي خيمته وفقد الخبز فى هذه المنزلة بالكلية وغلا الشعير حتى بلغ درهما وبلغ رطل البقسماط درهمين ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار الي موضع يسمى الملاحة يكون منزلا للعدو اذا رحلوا من حيفا وكان قد سبق ليفتقد المكان هل يصلح للمصاف أم لا ويتفقد أراضي قيسارية باسرها الي الشعرا وعاد الي المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال وصل الينا من اخبرنا انه ما رحل من حيفا الي عصر يومنا هذا يعني ثانى شعبان وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ويكون العمل بمقتضاها وبات تلك الليلة وأصبح مقيما بتل الزلزلة ينتظر العدو ونادى الجاويش بالعسكر للعرض فركب الناس على ترتيب المصاف وابهته . ولما علا النهار نزل السلطان فى خيمته وأخذ نصيبا من الراحة بعد الغداء ومثول جماعة من الامراء الي خدمته وأخذ رأيهم فيما يصنعون ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها الى العشاء الآخرة من مائة دينار الي مائة وخمسين دينارا وزائد وناقص فما رأيت أفسح صدراً منه ولا أبسط وجهاً فى العطاء واتفق الرأي على رحيل الثقل فى عصر ذلك اليوم الي مجدل يافا *

المنزل الثالث * وأقام هو جريدة بالمنزل الي الصباح رابع الشهر وركب وسار فى رأس النهر الجاري الى قيسارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربع دراهم وربع العشير درهمين ونصفاً والخبز لم يوجد أصلا ونزل فى خيمة وأكل خبزا وصلى الظهر وركب الي طريق العدو لتجديد ارشاده فى ضرب المصاف ولم يعد الى أن دخل وقت العصر فجلس ساعة وأخذ جزأ من الراحة ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ورمى خيمته ورمي الناس خيامهم في أواخر النهار *

المنزل الرابع . وكان الرحيل الي رابية متأخرة عن تلك الرابية وفى ذلك المنزل أتى باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فامر بضرب رقابهما فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفيا ثم بات هناك وأصبح مقيما بالمنزل لانه لم يصح عن العدو رحيل وأنفذ الي الثقل حتي يعود اليه فى تلك الليلة مما طرأ على الناس من الضيق فى المآكل والقضم وركب فى وقت عادته الي جهة العدو وأشرف على قيسرية وعاد الى الثقل قريب الظهر وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحة وأحضر عنده اثنان أيضا قد أخذا من اطراف العدو فقتلا شر قتلة وكان فى حدة الضيقة لماجري على أسرى عكا ثم أخذ جزأ من الراحة وجلس بعد صلاة الظهر وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور هيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم فاحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وساله كيف يسوى الطعام عندكم فقال أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس فلم نزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس وسأل عن سبب تأخرهم فى المنازل فقال لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة فسأل عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال كثير فسأل عن

الخيل التى هلكت فى ذلك اليوم فقال مقدار أربعمائة فرس فامر بضرب عنقه ونهى عن التمثيل به فسأل الترجمان عما قال السلطان فاخبره بما قال فتغير تغيرا عظيما وقال أنا أخلص لكم أسيرا من عكا فقال رحمه الله بل أميرا فقال لا أقدر على خلاص أمير فشفع الطمع فيه وحسن خلقه فاني ما رأيت أتم خلقا منه مع ترف فى الاطراف ورفاهية فامر أن يترك الآن ويؤخر أمره فصفده وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر وقتل الاسرى فاعترف بانه قبيح وانه لم يجر الا برضا الملك وحده وركب السلطان بعد صلاة العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفارس المذكور وأتى بعده باثنين فأمر بقتلهما وبات فى ذلك المنزل المذكور * وذكر له فى السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر *

المنزل الخامس * فرحل ورحل الناس الى قريب التل الذي كنا عليه فنزل الناس وضربت الخيام ومضي هو يرتاد الاراضي الكائنة فى طريق العدو لينظر أيها أصلح للمصاف ونزل قريب الظهر واستدعي أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان وأخذ رأيهما فيما يصنع وأخذ جزأ من الراحة وأذن الظهر فصلي وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره وأتاه اثنان من الافرنج قد نهبا فأمر بقتلهما فقتلا ثم أتي باثنين آخرين فقتلا أيضا . وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضا وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته واستدعي أخاه وصرف الناس وخلا به الي هزيع من الليل ثم بات وأصبح ونادي الجاويش لعرض الحلقة لا غير وركب الي جهة العدو ووقف على تلول مشرفة على قيسارية وكان العدو قد وصل اليها نهار الجمعة

سادس شعبان ولم يزل يعرض هناك الي ان علا النهار ثم نزل وأكل الطعام وركب الي أخيه وعاد بعد صلاة الظهر وأخذ جزأ من الراحة وجلس وأتي باربعة عشر من الافرنج وامرأة افرنجية بينهم أسيرة وهي بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة ورفع الباقون الى الزردخانة وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا فى مركب من جملة عدة كثيرة فقتلوا كل ذلك فى نهار السبت سابع الشهر وهو فى المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا علي لقائه اذا رحل *

المنزل السادس * ولما كان صبيحة الثامن ركب السلطان على عادته ثم نزل ووصله من أخيه أن العدو على حركة وكانت الاطلاب قد بانت حول قيسارية فى مواضعها فأمر بمد الطعام وأطعم الناس فوصل ثان وأخبر ان القوم قد ساروا فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس وسار وسرت فى خدمته حتي أتي عسكر العدو وصف الاطلاب حوله وأمرهم بقتالهم وأخرج الجاليش فكان النشاب بينهم كالمطر وكان عسكر العدو قد رتب فكانت الرجالة حوله كالسور وعليهم اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأخرون وهم يرموننا بالزنبورك فيخرج خيل المسلمين وخيالتهم ولقد شاهدتهم ويتغرز فى ظهر الواحد منهم الواحد والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج . وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فاذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم المستريح واستراح القسم المقاتل. هذا والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لاغير وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام . القسم الاول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه فى المقدمة

والانكتار والفرنسيس معه فى الوسط . وأولادالست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة وفي وسط القوم برج على عجلة على ما وصفته من قبل أيضا كالمنارة العظيمة هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسري والمستأمنين وساروا علي هذا المثال وسوق الحرب قائمة والمسلمون يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتي يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا شديدا ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيرا رقيقا ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر الي أن اتوا المنزل وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فان المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم فانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة عن غير دين ولا نفع وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها *

المنزل السابع * ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخبر أن العدو قد ركب سائرا فركب السلطان أول الصبح وطلب الاطلاب وأخرج من كل جانب جاليشا فسار يطلب القوم فاتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة اقسام على المثال الذى حكيته وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهو يحفظ بعضهم بعضا والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب والقتال بينهم شديد والسلطان يقرب الاطلاب ورأيته وهو يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يجاوزه وليس معه الا صبيان بجنبيه لا غير وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم والكؤوس تخفق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو . هذا والقوم على أتم ثبات علي ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون وجرت حالات كثيرة ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك

والنشاب ولم نزل حواليهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين أيدينا
ويفرون الى ان أتو نهراً يقال له نهر القصب ونزلوا عليه وقد قامت الظهيرة
وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا اذا نزلوا أيس الناس منهم
ورجعوا عن قتالهم وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام شجاع اسمه
إياز الطويل بعض مماليك السلطان وكان قد فتك فيهم وقتل خلقاً من
خيالتهم وشجاعتهم وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث انه جرت
له وقعات كثيرة صدقت اخبار الاوائل وسار بحيث اذا عرفه الافرنج في
موضع يخافونه تقنطرت به فرسه واستشهد وحزن المسلمون عليه حزناً
عظيماً ودفن على تل مشرف على البركة ونزل السلطان بالثقل علي البركة وهي
موضع يجتمع فيه مياه كثيرة وأقام في تلك المنزلة الي بعد صلاة العصر
وأطعم الناس خبزاً واستراحوا ساعة ثم رحل وأتي نهر القصب ونزل عليه
أيضاً فشرب منه قليل من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا الا
مسافة يسيرة وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم والخبز موجود كثيراً سعره الرطل
بنصف درهم وأقام ينتظر رحيل الافرنج حتى يرحل في مقابلتهم فباتوا
وبتنا أيضاً *

ذكر وقعة جرت

وذلك ان جماعة من العسكر الاسلامي كانو مشرفين على العدو
فصادفوا جماعة منهم يشرفون أيضاً على العسكر الاسلامي وظفروا بهم
وهجموا عليهم وجري بينهم قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وأحس بهم
عسكر العدو فثار اليهم منهم جماعة واتصل بالحرب وقتل أيضاً من المسلمين

نفران وأسر من العدو ثلاثة ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الاحوال فاخبروا ان الملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان وأنهما أخبراه بقلة العسكر الاسلامى وذلك الذى أطمعه حتي خرج وأنه لما كان بالامس يعني يوم الاثنين رأي من المسلمين قتالا عظيما واستكثر الاطلاب وانه جرح زهاء الف نفر وقتل جماعة وان ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره وانه لما رأى ما أصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما . وأقمنا فى ذلك اليوم في تلك المنزلة لاقامة العدو بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان

المنزل الثامن . ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم الى قدام العدو فدق الكوس ورحل الناس ودخل فى شعرا أرسوف حتى توسطها الى تل عند قرية تسمى دير الراهب فنزل هناك ودهم الناس الليل فتقطعوا فى الشعر وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر الي صباح الاربعاء الحادي عشر وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو واقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو فى تلك المنزلة أنه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً وانه لحقته نجدة من عكا فى ثمان بطس كبار واليزك الاسلامي حوله يواصلون الاخبار المستجدة بهم وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين

﴿ ذكر مراسلة جرت فى ذلك اليوم ﴾

وذلك ان العدو طلب من اليزك من يتحدث معه وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فانها كانت نوبته فلما مضى اليهم من سمع كلامهم كان كلامهم طلب الملك العادل حتي يتحدثوا معه فاستأذن ومضي وبات تلك

الليلة فى اليزك وتحدثوا معه وكان حاصل حديثهم انا قد طال بيننا القتال وقدقتل من الجانبين الرجال الابطال وأنا نحن جئنا في نصرة افرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم وكل منا يرجع الي مكانه وكتب السلطان الى أخيه فى صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها «ان قدرت أن تطاول الافرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فانهم قد قربوا منا»

(ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار)

ولما علم الانكتار وصول الملك العادل الي اليزك طلب الاجتماع به فأجابه الي ذلك فاجتمعا بفرقة من أصحابهما وكان يترجم بينهما ابن الهنفري وهو من أفرنج الساحل من كبارهم ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن الا أنه محلوق اللحية على ماهو شعارهم . وكان الحديث بينهما أن الانكتار شرع في ذكر الصلح وان الملك العادل قال له أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان فقال له الانكتار القاعدة أن تعود البلاد كلها الينا وتنصرفوا الى بلادكم فأخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت انهم رحلوا بعد انفصالهم * ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل الرحيل ووقف هو وعبي الناس تعبية القتال وسار الثقل الصغير أيضا حتى قارب الثقل الكبير ثم ورد امر السلطان بعودهم اليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل وتخبط الناس تلك الليله تخبطا عظيما واستدعى اخاه ليعرفه ماجرى بينه وبين الملك وخلا به لذلك وذلك فى ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر * واما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمي البركة ايضا يشرف على البحر واصبح السلطان فى يوم الجمعة متطلعا الي اخبار العدو فأحضر عنده اثنان من الافرنج قد تخطفهما اليزك فأمر بضرب اعناقهما

ووصل من أخبر ان العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك فنزل السلطان واجتمع باخيه يتحدثان فى هذا الامر وما يصنع مع العدو وبات تلك الليلة فى تلك المنزلة

﴿ ذكر وقعة ارسوف وهي أنكت فى قلوب المسلمين ﴾

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو إرسوف فركب ورتب الاطلاب للقتال وعزم على مضايقتهم فى ذلك اليوم ومصادمتهم وأخرج الجاليش من كل طلب وسار العدو حتى قارب شعرا أرسوف وبساتينها فاطلق عليهم الجاليش النشاب وتزتهم الاطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون ردأ ويضايق العدو مضايقه عظيمة والتحم القتال واضطرمت ناره من الجاليش وقتل منهم وجرح فاشتدوا في السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلوا واشتد بهم الامر وضاق بهم الخناق والسلطان يطوف من الميمنة الي الميسرة يحث الناس على الجهاد ولقيته مرارا ليس معه الا صبيان بجنبيه لاغير ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم نزل الامر يشتد بالطمع للعدو وطمع المسلمون فيهم طمعاً عظيما حتى وصل أوائل راجلهم الي بساتين أرسوف ثم اجتمعت الخيالة وتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا أنهم لا ينجيهم الا الحملة .ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فحملت طائفة علي الميمنة وطائفة علي الميسرة وطائفة على القلب فاندفع الناس بين أيديهم واتفق اني كنت في القلب ففر القلب فرارا عظيما فنويت التحيز الي الميسرة وكانت أقرب الى ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمه وفرت أشد فرار من

الـكل فنويت التحيز الي طلب السلطان وكان ردأ الاطلاب كلها كما جرت العادة ولم يبق للسلطان فيه الاسبعة عشر مقاتلا لاغير وأخذ الباقون الي القتال لـكن الاعلام كلها باقية ثابتة والـكؤوس تدق لا تفتر وأما السلطان لما رأي ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتي الي طلبه فوجد فيه هذا النفر القليل فوقف فيه والناس ينفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الـكؤوس بالدق بحيث لا يفترون وكلما رأي فاراً يأمر من يحضره عنده وفي الجملة ما قصر الناس بفرارهم فان العدو حمل حملة ففروا ثم وقف خوفا من الـكمين فوقفوا وقاتلوا ثم حمل حملة ثانية ففروا وهم يقاتلون في فرارهم ثم وقف فوقفوا ثم حمل حملة ثالثه حتي بلغ الي رؤوس رواب هناك وأعالي تلول ففروا الي أن وقف العدو ووقفوا وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكؤوس تدق يستحيي أن يجاوزه ويخاف غائلة ذلك فيعودا الي الطلب فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم علي رؤوس التلول والروابي والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتي أتت العسا كر باسرها وخاف العدو أن يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة وعاد السلطان الى تل في أوائل الشعرا ونزل عليه في خيمته . ولقد كنت في خدمتا ايه وهو لا يقبل السلو وظلل عليه بمنديل وسألناه أن يطعم شيئا فاحضر له شيء لطيف فتناول شيئا يسيرا وبعث الناس للسقي فان المكان كان بعيدا وجلس ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل في ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين . وكان ممن ثبت الملك العادل والطواشي قايماز النجمي والملك الافضل ولده وصدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان وجهه وسال منه دم كثير علي وجهه وهو صابر محتسب في

ذلك كله وثبت أيضاً طالب الموصل ومقدمة علاء الدين وشكره السلطان على ذلك وتفقد الناس بعضهم بعضاً فوجدوا أن قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم شخصان أمير كبير مملوك وكان شجاعاً معروفاً وقايماز العادلي وكان مذكوراً وليفوش وكان شجاعاً وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه وأخذت منهم خيول أربعة وكان قد تقدم رحمه الله الى الثقل أن يسير الى العوجاء وذكر أن المنزل يكون على العوجاء فاستأذنته وتقدمت الى المنزل وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر وما يرد من أخبار العدو وكان العدو قد نزل على ارسوف قبليها

(المنزل التاسع) وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل وقد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ووصل السلطان الى المنزلة أواخر النهار وازدحم الناس على القنطرة فنزل على تل مشرف على النهر ولم يمد الى الخيمة وأمر الجاويش أن ينادي في العسكر بالعبور اليه وكان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه الا الله تعالى والناس بين جريح الجسد وجريح القلب وأقام السلطان الى سحر الخامس عشر ودق الكؤوس وركب الناس وسار راجعاً الى جهة العدو حتى وصل الى قريب أرسوف وصف الاطلاب للقتال رجاء خروج العدو ومسيره حتى يصاف فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح وأقام قبالتهم الى آخر النهار وعاد الى منزلته التي بات فيها * ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكؤوس وركب الناس وسار نحوهم ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالباً جهة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الاطلاب

ترتيب القتال وأخرج الجاليش وأحدق العسكر الاسلامى بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ما كان يسد الأفق وقاتلت قلوبهم قتال الحنق وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الجملة حتي اذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ويعطى الله النصر لمن يشاء فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر للسوجاء وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه فنزل فى أسفله وعبر بعضهم الى غربي النهر وأقام الباقون من الجانب الشرقي فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم وعاد السلطان الي الثقل ونزل فى خيمته وأطعم الطعام وأتى باربعة من الافرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة فرفعوا الى الزردخانات وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب الي الاطراف باستحضار بقية العساكر وحضر من أخبر انه قتل من العدو يوم ارسوف خيول كثيرة وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان أن رحلت الجمال وتقدمت الي الرملة وبات هو بتلك المنزلة *

(المنزل العاشر) ولما كان سابع عشر صلي الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير وسار يريد الرملة وأتي باثنين من الافرنج فضرب أعناقهم ووصل من اليزك من أخبر أن العدو رحل من يافا وسار السلطان الى أن أتي الرملة وأتى باثنين من الافرنج أيضاً فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما وفى أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وأنها هل تخرب أو تبقى واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم واتصالها وأن يسير هو ويخرب عسقلان خشية أن يستولي عليها الافرنج وهى عامرة فيقتلوا من بها من المسلمين ويأخذوا

بها القدس الشريف ويقطعوا بها طريق مصر وخشى السلطان من ذلك
وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وماجري علي من كان
مقيما بها ويخيفوا الناس عن الدخول الي عسقلان فادخرت القوة فى عسكر
الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان فسار الثقل
والجمال من أول الليل وتقدم الى ولده الملك الافضل ان سار عقيب الثقل
نصف الليل وسار هو وأنا في خدمته سحر الاربعاء *

(المنزل الحادي عشر) وهو على عسقلان * ولما كان يوم الاربعاء ثامن
عشر الشهر وصل السلطان الى يبنا فنزل بها ضحي وأخذ الناس راحة ثم
رحل وسار حتي أتي أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات
هناك مهموما بسبب الخراب ومانام الاقليلا . ولقد دعانى فى خدمته سحرا
وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث في
معنى خرابها واحضر ولده الملك الافضل وشاوره فى ذلك وطال الحديث
فى المعنى . ولقد قال لي والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن
أهدم منها حجراً واحداً ولكن اذا قضي الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين
كان ثم استخار الله تعالى فأوقع الله فى نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز
المسلمين عن حفظها فاستحضر الوالي قيصر بها وهو من كبار مماليكه وذوى
الآراء منهم فأمره بجمع العمال فيها ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق
بنفسه مستقر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير
وطائفة من الناس العسكر بدونه معلومة وبرجا معلوما يخربونه ودخل الناس
البلد ووقع الضجيج والبكاء وكان بلدا نضرا خفيفا على القلب محكم الاسوار
عظيم البناء مرغوبا فى سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وعظم عويل

أهله علي مفارقة أوطانهم وشرعوا فى بيع مالا يمكن حمله فبيع مايساوي عشرة دراهم واحد واختبط البلد وخرج أهله الي العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الافرنج وبذلوا في الكراء أضعاف مايساوى وقوم الي مصر وقوم الى الشام وقوم يمشون اذلم يقع لهم كراء وجرت أمور عظيمة وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا وكان هو بنفسه وولده الملك الافضل يستعملان الناس في الخراب والحث عليه خشية ان يسمع العدو فيحضر ولا يمكن خرابها وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب والنصب وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الافرنج تحدثوا معه فى الصلح وانه خرج اليه ابن الهنفري وتحدث معه وانه طلب جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان ان ذلك مصلحة لما رأى في أنفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة وكثرة ماعلاهم من الديون وكتب اليه يسمح في الحديث فى ذلك وفوض أمر ذلك الى رأيه واصبح في العشرين على الاصرار على الخراب واستعمال الناس فيه وحثهم عليه واباحهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الافرنج وامر بحرق البلد فأضرمت النار فى بيوته ودوره ورفض اهله بواقى الاقمشة للعجز عن نقلها والاخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا وكتب الملك العادل يخبر ان القوم لم يعلموا بخراب البلد وان سوف القوم وطول الحديث لعلنا تتمكن من الخراب وامر بحشو ابراج البلد بالأحطاب وان تحرق واصبح الحادي والعشرون فركب يحث الناس ودام يستعملهم على التخريب ويطوف عليهم بنفسه حتى التاث مزاجه التياثا قويا متنع بسببه من الركوب والغذاء يومين واخبار العدو تتواصل اليه في كل وقت ويجرى بينهم وبين

اليزك والعسكر وقمات وقلبات وهو يواظب على الحث علي الخراب ونقل الثقل الي قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم من ذلك فخرب من السور معظمه وكان عظيم البناء بحيث أنه كان عرضه فى مواضع تسعة أذرع وفى مواضع عشرة أذرع وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ان عرض السور الذى ينقبون فيه مقدار رمح ولم يزل التخريب والحريق يعمل فى البلد وأسواره الى سلخ شعبان وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسحون وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في غرتهم فعزم على الرحيل علي ان يخاف فى عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم ويستنهضوهم فى الخراب ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه احكم بناء يقرب من أن لا تعمل فيه المعاول وانما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ويعمل الهدم فيه . وأصبح مستهل رمضان فامر ولده الملك الافضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه * ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه فى البرج حتى امتلأ ثم أطلقت فيه النار فاشتمل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ولم يركب السلطان فى ذلك اليوم تسكينا لمزاجه وعرض لى أيضا تشوش مزاج اقتضى انقطاعى عنه فى ذلك اليوم ولقد تردد الى من سأل عن مزاجي من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم . فالله تعالى يرحمه لقد ماتت محاسن الاخلاق بموته *

ذكر رحيله الى الرملة

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر
ووصل يبنا ضحوة النهار ونزل في خيمة أخيه واستعلم منه أخبارهم ساعة ثم
ركب ونزل في خيمته وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا الى
جهة الرملة فسار حتى أتاها ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير نزول اقامة ورتب
العسكر ميمنة وميسرة وقلباً واطعم الناس الطعام واخذ جزأ من الراحة وركب
بين صلاتي الظهر والعصر وسار الي لدو رآها ورأي بيعتها وعظم بنائها فامر بخرابها
وخراب قلعة الرملة فوقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم وفرق الناس فرقا
لتخريب المكانين وارباح مافيهما من التبن والشعير في الاهراء السلطانية وامر من
كان فيها من المقيمين بالانتقال الى المواضع العامرة وما كان بقي في المكانين الا نفر
يسير وظل الناس يخربون الي ان امسى المساء ثم عاد الى خيمته واصبح رابع
رمضان فاقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم من يستنجزهم في ذلك
وهو يتردد عليهم في الاصائل حتي جاء وقت المغرب فمد الطعام وافطر الناس
وانفصلوا الي خيمهم ووقع له ان يشير خفية في نفسه يسير يشاهد احوال القدس
فسار من اول الليل حتي اتي بيت نوبة فبات فيها حتي اتي الصباح وصلي ثم سار
حتي اتى القدس في خامس الشهر وخلف اخاه في العسكر يحث الناس على
الخراب واقام ذلك اليوم يتصفح احوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله
وغير ذلك وظفر في ذلك غلمان الطواشي قايماز بنفر من النصاري ومعهم
كتب قد كتبها الوالي الى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها اعواز البلد الغلة
والعدة والرجال فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم ومازال
يتصفح احوال المكان ويامر بسد خلله الى الثامن وخرج سائر الي العسكر بعد

صلاة الظهر فبات فى بيت نوبة . وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج ارسلان وافدا عليه مستنصراً به على أخوته وأبيه فانهم كانوا يقصدون أخذ بلدة منه فلقيه الملك العادل قاطع لد فاحترمه واكرمه ثم لقيه الملك الافضل وضربت خيمته قريبا من لد . وفى ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فحمل عليهم اليزك ووصل الخبر الى عسكرهم فخرج الي نصرتهم خيالة وجرى بينهم وبين اليزك قتال وذكر بعض الاسري انه كان معهم الانكتار وأن مسلما قصد طعنه فحال بينه وبينه افرنجى فقتل الافرنج وجرح هو هكذا ذكروا والله أعلم

ولما كان التاسع وصل رحمه الله الي العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ولقيه ابن قليج أرسلان فنزل له واحترمه واكرمه ونزل في خيمته وأقام يحث الناس على التخريب وتتواصل أخبار العدو اليه ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ويسرق العرب من خيولهم ويقاتلهم رجالهم *

(ذكر وصول رسول مركيس)

وفي غضون ذلك وصل رسول المركيس يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط ان يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الافرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم واشترط أن يبذل السلطان اليمين على ذلك ابتداء فسير العدل النجيب وحمله الاجابة الي ملتمسه لقصد فصله عن الافرنج فانه كان خبيثاً ملعونا وكان قد استشعر منهم اخذ بلده وهى صور فانحاز عنهم واستعصم بصور وهى منيعة فقال ذلك القول لهذا السبب وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر واشترط عليه ان يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها وبصور من الاسرى وعند ذلك يسلم اليه الموضعان

وفى عشية ذلك اليوم خرج رسول ملك الانكتار الى الملك العادل فى تحريك سلسله الحديث فى الصلح *

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان أن يتأخر العسكر الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم الى المألوفة فانا كنا على الرملة قريبين من العدو ولا يمكن التفريط في الدواب خشية المهاجمة فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجمع العساكر ماعدا اليزك على العادة وذلك بعد خراب الرملة ولد ولما نزل هناك دار حول النطرون وأمر بخرابها وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع فى خرابها

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون أنه قد سلم أمر الصلح الى الملك العادل وأخلد اليه وخرج فى عشرة أنفس الي اليزك فاخبروه بأخبار طيبة وكتب بها الى السلطان في السابع عشر وكان مما أخبره به أخوه أن الملك افرنسيس مات وكان موته بانطاكية عن مرض عرض له وان الانكتار عاد الى عكا وكان سبب عوده انه صح عنده مراسلة المركيس للسلطان وبلغه أن المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على عكا فعاد هو الي عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس اليه فركب السلطان الى اليزك واجتمع باخيه فى لد وسأله عن الاخبار وعاد الي المخيم وقت العصر وأتي باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فاخبروا بصحة موت الافرنسيس وعود الانكتار الي عكا

« ذكر مسير الملك العادل الى القدس »

ولما كان التاسع عشر اقتضي الحال تفقد القدس والنظر فى عمارته وكان الملك العادل قد عاد من اليزك وعلم بعد مسير مقدمي الافرنج عنا فرأي أن يكون

هو الذى يسير فسار فى هذا اليوم لهذا الغرض

وفى تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقى الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه وقيل ان ذلك كان من تحت يد زوجته تعصباً للسلطان طغريل وجرى بسبب قتله خبط عظيم في بلاد العجم وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة *

ولما كان الحادى والعشرون من رمضان قدم الملك العادى من القدس وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوى يذكر فيه قصد الملك المظفر تقى الدين خلاط ويذكر فيه العناية التامة ببكتمر ويشفع في حسن ابن قفجاق والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين باربل ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبث حال وفصل أمر وسير الكتاب الى الفاضل ليقف عليه ويكتب الى تقى الدين *

(ذكر اخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا فى خيام العدو)

ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا الى خيم العدو وسرقوهما وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ويسرقون الرجال أحيانا وذلك انه يكون الواحد منهم نائما فيوضع علي حلقه الخنجر ثم يوقظ فيري الشلح وقد وضع الخنجر علي نحره فيسكت ولا يتجاسر ان يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع الى أن يخرج من الخيم ويؤخذ أسيراً وتكلم منهم جماعة فنحروا فصار من أصابه ذلك لا يتكلم واختاروا الاسر علي القتل وداموا علي ذلك مدة طويلة الى انتظام الصلح *

وفى ذلك اليوم وصل من اليزك من أخبر أنهم خرجوا من عكا

يتفسحون وان اليزك حمل عليهم فاسر منهم أحدا وعشرين نفسا وان الاسري أخبر وهم بصحة عود الانكتار الي عكا وانه مريض بها و خبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم * وفى هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة قيل انها وصلت من عكا وان فيها الانكتار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان و يعمرها وقيل يقصد القدس والله أعلم

ولما كان الرابع والعشرون وصل الاسري المذكورون من الزيب وكان وصولهم فرحا للمسلمين مبشرا بكل خير وفيه وصل رسول قزل وكان قد سيره قبل وفاته ورسول ابن اخيه ايناج وفى عشيته وصل رسول من الانكتار معه حصان الي الملك العادل في مقابلة هدية كان انفذها اليه . وفيه وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه فصعب على السلطان موته وشق عليه وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيه ان البرنس أغار على حبلة واللاذقية وانه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد الي انطاكية

﴿ذكر رسول الملك العادل الى الانكتار﴾

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك للعادل فطلب الانكتار رسوله فأنفذ الصنيعة وهو كاتبه . وكان شابا حسنا فوصل اليه وهو في يازور قد خرج فى جمع كثير من الرجالة وانبثوا فى تلك الارض فاجتمع به وسار معه زمناً طويلاً وحادثه في معنى الصلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث به من أخي وصديقي يعني العادل وذكر له كلاما وعاد وأخبره به فكتبه الملك العادل فى رقعة وأنفذها الى السلطان وكان يتضمن انك تسلم عليه وتقول له ان المسلمين والافرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين

بالكلية وقد تلفت الاموال والارواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حديث سوي القدس والصليب والبلاد والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا الا واحدا * وأما البلاد فيعاد الينا ماهو قاطع الاردن * وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب * ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعي أرباب المشورة فى دولته واستشارهم فى الجواب والذي رآه السلطان ان قال القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسري نبينا ومجتمع الملائكة فلاتتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين وأماالبلادفهى أيضاً لنا فى الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت وما يقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائما وما فى أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به * وأما الصليب فهلا كه عندنا قربة عظيمة لايجوز لنا ان نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هى أوفى منها وسار هذا الجواب اليه مع الواصل منه

﴿ ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردى من عكا وكان أسيراً ﴾

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا وكان من قصته انه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك انه كان ادخر له حبلا فى مخدته وكان الامير حسن بن باريك ادخر له حبلا فى بيت الطهارة واتفقا على الهرب ونزلا من طاقة كانت فى بيت الطهارة وانحدرا من السور الاول وعبر شيركوه من الباشورة أيضا وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سالما فرآه وقد تغير

من الوقعة فكلمه فلم يجبه وحركه فلم يتحرك فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر فعلم انه اذا أقام عنده أخذا جميعا فتركه وانصرف واشتد هرباً فى قيوده حتى أتي تل العياضية وقد طلع الصبح فاكمن فى الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتي المعسكر ومثل بخدمة السلطان وكان من أخباره ان سيف الدين المشطوب ضيق عليه وانه قطع على نفسه قطيعة عظيمة من خيل و بغال وأنواع الاموال وان الملك الانكتار أتي عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ولم يبق له منها شيأ وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مدداً عظيماً وأن طغرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه*

(ذكر رسالة سيرتني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الامراء)

وذلك انه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل فى صحبته وأحضر جماعة من الامراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وشرح لنا ماعاد به رسوله من الانكتار من الرسالة والكلام وذلك انه ذكر انه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكتار وكان قد استصحبها معه من صقلية فانها كانت زوجة صاحبها وقد مات فأخذها أخوها لما أجتاز بصقلية فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التى بيده من عكا الى يافا وعسقلان الي غيرذلك و يجعلها ملكة الساحل و يجعله ملك الساحل و يكون ذلك مضافا الي مافى يده من البلاد والاقطاع وأنه يسلم اليه صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار والحصون لهما وأسرانا تفك وكذلك أسراهم وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة و يرحل

الانكتار طالبا بلاده فى البحر وينفصل الأمر هكذا ذكر رسول العادل عن الانكتار . ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملناهذه الرسالة الي السلطان وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون ونعرض عليه هذا الحديث فان استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالاذن فى ذلك والرضابه وان أباه شهدنا عليه أن الحال فى الصلح قد انتهي الى هذه الغاية وأنه هو الذى رأي ابطاله فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين فبادر الي الرضا بهذه القاعدة معتقداً ان الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا فان هذه منه مكر وهزل فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به فلما تحققنا منه ذلك عدنا الي الملك العادل فعرفناه بما قال وعرفه الجماعة اني كررت عليه الحديث فى تقييد الشهادة عليه وأنه أصر على الاذن فى ذلك واستقرت القاعدة عليه *

﴿ ذكر عود الرسول الي الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة ﴾

ولما كان ثانى شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان ومن جانب الملك العادل فلما وصل ألى مخيم العدو وأنفذ من عرف الملك بقدومه أنفذ اليه من قال له ان الملكة عرض عليها أخوها النكاح فسخطت من ذلك وغضبت بسببه وأنكرت ذلك انكاراً عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها انها لا تفعل ذلك وكيف تمكن مسلماً من غشيانها ثم قال أخوها ان الملك العادل يتنصر وأنا أتم ذلك وترك باب الكلام مفتوحا *

ولما كان خامس شوال وصل الخبر ان الاسطول الاسلامى استولي على مراكب الافرنج وفيها مركب يعرف بالسطح قيل انه كان فيه خمسمائة

النفر وزائد على ذلك وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة مذكورون وسر المسلمون بذلك وضربت بشائر النصر ونعق بوق الظفر فلله الحمد والمنة *

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم كيف يصنع ان خرج العدو وكان قد تواصلت الاخبار عنهم انهم قد اتفقوا على الخروج الي العسكر الاسلامي فانفصل الرأي بين ذوي الآراء على أنهم يقيمون بمنزلهم بعد تخفيف الاثقال فان خرج الافرنج كانوا على لقائهم *

وفى عشية ذلك اليوم استأمن من الافرنج اثنان على فرسين وأخبرا أن العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس وذكرا انهم لا يعرفون قصدهم وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهر الخروج الى الرملة ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه . ولما تحقق السلطان أمر الجاويش أن ينادى فى العسكر حتى يتجهز جريدة وشدت الرايات واتفق على أنه يقف قبالة القوم ان خرجوا وسار فى السابع مؤيداً منصورا حتى أتي قبلي كنيسة الرملة ليلا فخيم هنالك ليليه .

﴿ ذكر خروج الافرنج من يافا ﴾

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الابطال للقتال وسلم اليزك للملك العادل وتبعه من يريد من الغزاة وكان قد وصل وجماعة من الروم يريدون الغزاة فخرجوا فى جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الافرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جاشهم وأنسهم بقتالهم وثقتهم بمراكبهم ورموا عليهم النشاب فرآهم الغزاة والواصلون من الروم فاغتروا باقدامهم ووافقوهم فى فعلهم وقاربوا عسكر العدو فلما رأي الافرنج تلك المضايقة والمنازلة ثارت هممهم وحركتهم

نحوتهم فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع
كثير فنجا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته وظفروا بجماعة فقتل منهم
ثلاثة نفر ونقلوا خيامهم الى بازور وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزلته الي الصباح

(ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر)

ولما كان الحادي عشر ركب السلطان الى جهة العدو فاسرف عليهم ثم
عاد وأمرني بالاشارة الي أخيه بان يحضر معه علم الدين سليمان وسابق الدين
وعز الدين بن المقدم فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خادما أن يخلي المكان عن
غير الحاضرين وكنت في جملتهم وأمر بابعاد الناس عن الخيمة ثم أخرج
كتابا من قباء وفضه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب حتى
وافقناه من غير ان نعلم السبب ما هو وفي أثناء ذلك ذكر انه يتضمن وفاة
الملك المظفر فاخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا ابو ظيفته ثم ذكرته الله تعالي وانهاء
قضائه وقدره فقال استغفر الله انا لله وانا اليه راجعون ثم قال المصلحة كتم ذلك
واخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن نازله ثم احضر الطعام فاكلوا الجماعة وانفصلوا
وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل الي حماة بنعيه
في طي كتاب وصل من النائب بها وكانت وفاته بطريق خلاط مائداً الي
ميافارقين فحمل ميتا الي ميافارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة
بارض حماة وحمل اليها وزرت ضريحه وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة
سبعة وثمانين

(ذكر كتاب وصل من بغداد)

ولما كان الثاني عشر من شوال وصل من دمشق كتاب من النواب

بها في طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوى مجده الله يتضمن فصولا ثلاثة الاول الانكار على الملك المظفر في مسيره الي بكتمر وبولغ فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لا يسلمه . والفصل الثاني يتضمن الانكار على مظفر الدين فى امساك حسن بن قفجاق والامر باعادته الى الكرخاني وبولغ فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لم ياذن لغيره فى سكناها . وكانت قصة حسن ابن قفجاق أنه قصد ارمية الي السلطان طغريل فانه كان قد نزل به فى معونته لما هرب من ديار العجم واستنصر به وتزوج اخه ووقع فى ذهنه انه يكون أتابكه ويملك به البلاد فقصد أرمية فقتل أهلها على ما قيل وسبي نساءهم وذراريهم وتعرض للقوافل وكان معقلة الكرخاني فلما وجد السلطان طغريل قوته تركه وانصرف عنه وعاد الي بلاده وأظهر الفساد فى الارض والتعرض للقوافل على ما قيل فاستعطفه مظفر الدين صاحب أربل حتي عاد اليه وانخرط فى سلك اصحابه وقبض عليه وانفذ الي الديوان العزيز ذلك وفى معناه استيلاء مظفر الدين على بلاده ولعله تشفع الى الديوان فاقتضت عاطفته ذلك فى حقه . واما الفصل الثالث فكان يتضمن التقدم باحضار القاضي الفاضل في الديوان رسولا لتقرر عليه قواعد ويسر اليه أسباب . هكذا كان مضمون الكتاب . واما الجواب عنه فان السلطان أجاب عن الفصل الاول بانا لم نأمره بشيء من ذلك وانما عبر ليجمع العساكر ويعود الى الجهاد فاتفقت أسباب اقتضت ذلك وقد أمرناه بالعود . واما الفصل الثاني فاجاب عنه بان عرفهم حال ابن قفجاق وما تصدي له من الفساد في الارض وانه تقدم الى مظفر الدين حتى يحضره معه الى الشام فيقطعه فيه ويكون ملازما للجهاد . واما الفصل الثالث فانه اعتذر عن القاضي الفاضل بانه كثير الامراض وقوته تضعف عن

الحركة الى العراق فهذا كان حاصل الجواب *

ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس

ولما كان ثالث عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدامن جانب المركيس صاحب صور وكان قد جري بيننا وبينه أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الافرنج ونصرتهم ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لاخي الملك جفري وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه فأخذ زوجته وهرب تحت الليل الي صور وأخلد الى السلطان والاعتضاد به وكان فى ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج فانه كان أشدهم باسا . وأعظمهم للحرب مراسا . واثبتهم فى التدبير أساسا . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر باجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش مايليق بعظمائهم وملوكهم وأمر بانزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به *

ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس المهراني

ولما كان سادس عشر شوال أمر السلطان الحلقة أن تكمنت للعدو فى بطون أودية هنالك واستصحبوا جماعة من العرب فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب علي جاري عادتها فى مناوشتها العدو وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريباً من مخيمة تضرب العرب وتضرب العرب عليهم فضربوا عليهم ووقع الحرب بينهم وثار الصياح وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا اجهة العرب فانهزم العرب بين أيديهم الي

جهة الكمين والعدو يتبعهم طمعاً حتي قاربوا الكمين فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدوفركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال واشتد الامر وقتل جمع من الطائفتين وأسر وجرح جمع من العدو وأخذ منهم خيل كثيرة وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة فانفذ أمراء أخر أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراهما ردأ للمسلمين وقال اذا رأيتم الغلبة علي الكمين فاظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الاطلاب الاسلامية قد صوبت نحوه أعنة خيلها ولوا الادبار نحو خيامهم والسيف يعمل فى أقفيتهم حتى دخلوا الخيام وانفصل الحرب قبيل الظهر وكان السلطان قدركب متشوفا أخبار الكمين وكنت فى خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ومعهم خمس رؤس من الخيل قد أخذوها وانفصلوا قبل انفصال الحرب ومازالت الطلائع تتواترو البشائر تتواصل وقتل العدو زهاء ستين نفرا وجرح من المسلمين جماعة منهم اياس المهراني وكان شجاعا معروفا وجاولي غلام القيدى وأسر من العدو فارسان معروفان واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما وعاد السلطان الي خيمة فرحا مسرورا معرضا من قتل فرسه متلطفا بالجريح مترحما علي الشهيد *

وفى بقية هذا اليوم وصل رسول الانكتار الى الملك العادل يعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به *

(ذكر ماجري للملك العادل والانكتار واجتماعهما)

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل الي اليزك وضربت له قبة عظيمة

وساروممه من الاطعمة والحلاوات والتجملات والتحف وماجرت العادة ان يحمل من ملك الي ملك وهو اذا تجمل في ذلك لا يغلب وسار الانكتار الى خيمته وحضر عنده فاحترمه احتراما عظيما ووصل مع الانكتار الي خيمته وأحضر من طعامهم الذي يختصون به ماتحف به الملك العادل على وجه المطايبة فتناول منه الملك العادل وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصلا على تواد ومحبة اكيدة *

﴿ ذكر الرسالة التي أنفذها الانكتار الى السلطان ﴾

وفي ذلك اليوم سأل الانكتار الملك العادل ان يلتمس من السلطان الاجتماع به والمثول بين يديه . ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب فما منهم من وقع له ماوقع للسلطان . وذلك انه قال الملوك اذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك فاذا انقطع أمر حسن الاجتماع والاجتماع لا يكون الا لمفاوضة في مهم وانا لاأفهم بلسانك وأنت تفهم بلساني ولا بد من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة قال الرسول ولما سمع الانكتار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض الا بالدخول تحت المراضي السلطانية

(ذكر حضور صيدا بين يدي السلطان)

ولما كان التاسع عشر جلس السلطان واستحضر صاحب صيد السماع رسالته وكلامه فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه وكنت حاضر المجلس فاكرمه اكراما عظيما وحادثهم وقدم بين أيديهم ماجرت به العادة . ولما

فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم فى أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور وكان قد انضم اليه جماعة من اكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين وقد سبقت قصته وكان من شروط الصلح معه اظهار عداوة الافرنج البحرية وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الايقاع بينهم وأن يقتل بعضهم فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

﴿ذكر وصول رسول الانكتار وهو ابن الهنفرى وهو من﴾ ﴿اكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم﴾

وصل وفى صحبته شيخ كبير ذكروا ان عمره مائة وعشرون سنة فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته ان الملك يقول انى احب صداقتك ومودتك وانك ذكرت انك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فاريد أن تكون حكماً بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف ومقصودي أن نقسم بحيث لايكون عليه لوم من المسلمين ولا علي لوم من الافرنجية فأجابه فى الحال بوعد جميل ثم أذن له في العود فى الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيما وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارى وكان منفصلا عن حديث الصلح فقال ان كان صلح فعلى الجميع وان لم يكن صلح فلا يكون من حديث الاساري شيء وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعدة الصلح فانه التفت الى في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال متى ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فاني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر وتقوي الافرنج فالمصلحة أن لانزال على الجهاد حتى نخرجهم

من الساحل او يأتينا الموت هذا كان رأيه قدس الله روحه وانما غلب على الصلح

﴿ ذكر مشورة ضربها فى التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس ﴾

ولما كان حادي عشر شوال جمع السلطان الامراء والاكابر وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التى التمسها المركيس واستقر الامر من جانبه عليها وهى أخذ صيدا وان يكون معنا على الافرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهي ان تكون لنا من القري الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبليات باسرها أو تكون القرى كلها مناصفة وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس فى بيع القدس الشريف وكنائسه . وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين فشرح قدس الله روحه الحال فى القاعدتين للامراء واستنبط آراءهم فى ترجيح أحد الحالين الانكتار والمركيس وترجيح احد القسمين المذكورين من جانب الملك فرأي أرباب الرأي انه ان كان صلح فليكن مع الملك فان مصافاة الافرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة غير مأمونة الغائلة وأنفض الناس وبقى الحديث مترددا فى الصلح والرسل تتواصل فى تقرير قواعد الصلح .وأصل التقاعد ان الملك قد بذل اخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لهما فاما الافرنجية فلها من جانب اخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعني أن قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع اختى تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير اليه رسولا يعود في ستة أشهر فان اذنت فيها ونعمت والا زوجتك ابنة أخي وما أحتاج الى

اذنه في ذلك . هذا كله وسوق الحرب قائم * والقتال عليهم ضربة لازم *
وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الاحيان ويشرف على الافرنج وهم
كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من ان ينضاف المركيس الي المسلمين
وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك الى خامس عشر شوال

﴿ ذكر رحيله رحمه الله الى تل الجزر ﴾

ولما كان ذلك اليوم اصبح الملك على عزم الرحيل واحضر أرباب
الرأي وشاورهم فى جواب رسالة القوم وعرض عليهم حديثه وذكر
ما عندهم فى ذلك واحضر الرسل وكان ابن الهنفري يترجم بينه وبين
البحرين واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ومن جانب
العادل الآخر لان الحديث كان يتعلق به وكان من جملة رسالتهم ان البابا ان
اذن في هذا المقدتم وان لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة اخي الملك وهى
بكر وذكروا ان من دينهم ان البابا انما يحتاج الي اذنه في تزويج الثيب من
بنات الملوك واما الابكار فيزوجها اهلها وانفصل الحال على ذلك وسارت
الرسل الى خيم الملك العادل ليجهز رسول السلطان ويلحقه ثم وصل بعد ذلك
من اليزك من اخبر ان الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير وخرجوا عن
الاسوار التى لهم ولم يظهر لخروجهم غائلة وسار رحمه الله عليه الي تل الجزر
لارتياد اليزك وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر الا ورحل الناس الى
السلطان ونزلنا بتل الجزر . ولما عرف الافرنج بعود السلطان رحلوا عائدين
واقام السلطان بتل الجزر ثم رحل الي جهة القدس الشريف ورحل الافرنج
الى جهة بلادهم واشتد الشتاء واعظمت الامطار وسار السلطان الى القدس
الشريف واعطي العسكر دستوراً واقمنا بالقدس فى ذلك الشتاء اجمع وعاد

العدو الي بلادهم ووصل الانكتار عساكره الي يافا وعاد الي عكا ينظر فى أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول اني أوثر الاجتماع بالملك العادل فيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بلغنى ان السلطان فوض أمر الصلح الي أخيه الملك العادل فاتفق الرأى فى مضي الملك العادل على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التى فى الغور وكوكب وتلك النواحى ويحدثه ويقول له ان الحديث جري بيننا مرارا وما أسفر عن مصلحة فان كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلا حاجة الي الحديث * وان كان الغرض بت حال فقارب الحال وأنا لا أجتمع بك الا ان رأي مايقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل ان رأي مايمكن معه فصل الحال والا طاوله وماطله الى أن تصل العساكر من الاطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن انهاء ماينفصل الحال عليه فكتب تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت انه أمر على طلبها وأن نعطى صليب الصلبوت ويكون لهم فى القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل علي ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الاوطان فان من الناس من كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه

(ذكر مسير الملك العادل)

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الاول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابه من كيسان يخبر أنه لقيه المنغرى مع الحاجب أبي بكر رسولا من الانكتار يقول انا قد وافقنا على قسمة البلاد وان كل من في يده شيء فهو له فان كان ما فى أيدينا زائدا أخذتم فى مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا وان كان مافي أيديكم اكثر فعلنا كذلك

ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون الكتاب فاوقف السلطان عليه الامراء فاستصوب ذلك الامير أبو الهيجاء ورأو من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة وسار الجواب الي الملك العادل في ذلك *

ولما كان حادى عشر ربيع الاول وصل الحاجب أبو بكر صاحب الملك العادل يخبر ان الانكتار سار الى يافا من عكا وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به الا عن قاعدة منفصلة وانه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة حاصلها انه نزل علي ان تكون الصخرة لنا والقلعة فى أيدينا والباقى مناصفة وان لا يكون في البلد منهم مذكور وان تكون قري القدس وباطنه مناصفة ثم قدم الملك العادل فى سادس عشر ربيع الاول من الغور ولقيه السلطان وحكى ماسبق من الخبر .

وفى بقية ذلك اليوم وصل من أخبر ان الافرنج أغاروا علي حلة عرب قريبة من الدارون وأنهم أخذوا منهم جماعة وانهم أخذوامنهم زهاء ألف رأس غنم فعظم ذلك علي السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم

(ذكر انفصال رسول المركيس)

وكان قدوصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس يلتمس الصلح مع المسلمين فاشترط رحمه الله عليه شرطاً منها ان يقاتل جنسه ويباينهم . ومنها ان ما يأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا وما نتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسري المسلمين وغير ذلك من الاموال . ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته . ومنها ان فوضي

الانكتار اليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا و بين الانكتار ماعدا أعسقلان ومابعدها فلا يدخل فى الصلح وتكون الساحليات له وما فى أيدينا لنا وما فى الوسط مناصفة وسار رسوله على هذه القاعدة*

ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الاول وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ووصل جريدة مقدما على عسكره *

(ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الاسر)

وكان وصوله الي القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادي الاخرى دخل على السلطان بغتة وعنده اخوه الملك العادل فنهض له واعتنقه وسر به سروراً عظيما وأخلي المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانتكار سكت عنه*

وفى هذا اليوم كتب السلطان الي ولده الملك الأفضل ان يسير الى قاطع الغراة و يستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه وأظهر ذلك ودخل فى أمره الملك العادل وسير الي الملك العادل حتي يتحدث فى أمره . وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظاً عظيما كيف يكون هذا الامر من أهله ولم يكن أحد من أهله خاف منه ولا طلب عينه وهذا كان السبب فى توقف الانتكار فى الصلح فانه ظن ان خلافه يكدر للسلطان شرب الغراة و يحوجه الي الموافقة على ما يرضاه فانفذ الى الملك الافضل ان يسير الي البلاد وكتب الى الملك الظاهر بحلب المحروسة ان أخاه ان احتاج الى معونة عاونه وجهزه بحملة كبيرة وسار باحترام

عظيم حتي وصل الي حلب واكرمه أخوه الملك الظاهر اكراما عظيما وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية .وعدنا الي حديث العدو*

﴿ذكر عودة رسول صور﴾

ولما كان سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من جانب المركيس يجدد حديث الصلح ويقول قد انفصل الحال علي شيء بينه وبين الافرنجية فان نجز في هذه الايام سارت الفرنسيسية في البحر وان تأخر بطل الحديث في الصلح بالكلية فرأي السلطان الصلح مع المركيس مصلحة لاشتغال قلبه من جانب الشرق وخاف أن يتصل ابن تقي الدين بكتمر فيحدث من ذلك مايشتغل الخاطر من الجهاد فأجاب الى ملتمس المركيس وكتب مع صاحبه مواضعة على نعت ما تقدم وسار يوسف الرسول بالجواب تاسع ربيع الآخر *

(ذكر قتل المركيس)

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من الرسول المنفذ الي المركيس كتاب ان المركيس قتل وعجل الله بروحه الي النار وكانت صورة قتله انه تقدم يوم الثلاثاء ثالث عشر عند الاسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين وكان خفيفاً من الرجال فما زالا يضربانه حتي عجل الله بروحه الى النار وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الامر ومن حضهما عليه فقالا ان الانكتار حملنا عليه وقام بالامر اثنان فحفظا القلعة الي ان اتصل الخبر بالملوك وانعقد الامر وتدبر المكان*

﴿ذكر تتمة خبر الملك المنصور وماجرى له﴾

وذلك أنه لما بلغه مؤاخذة السلطان أنفذ الي الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة مع كفالة اخوته فراجع الملك العادل السلطان مرارا فلم يجبه الي شيء من ذلك فكثرت الشفاعة اليه من جميع الامراء وهزت شجر رأفة منه فرجع خلقه النبوي وحلف له على حران والرهاوسميساط على انه اذا عبر الفرات أعطي المواضع افرجها وتكفل اخوته ويتخلى عن تلك المواضع التى فى يده ودخلت تحت ضمان الملك العادل ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانيا ولج عليه فمزق نسخة اليمين فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر وانفصل الحال وانقطع الحديث وكنت المتردد بينهما فى ذلك وأخذ الغيظ السطان كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب اولاد اولاده *

﴿ذكر قدوم رسول ملك الروم﴾

ولما كان مستهل جمادي الاولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى والتقى بالاحترام والاكرام ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر وكانت رسالته تشتمل على مطالب .منها صليب الصليوت . ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس.ومنها أن يكون الاتفاق معه على ان يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه وان يوافق على قصد جزيرة قبرص فاقام عنده يومين ثم سير معه رسولا يقال له ابن البزاز من الديار المصرية وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتى الف دينار فلم يجب الي ذلك*

﴿ذكر ماجرى للملك العادل فى البلاد التى هى قاطع الفرات﴾

وذلك انه لما سار الملك الافضل رقي الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين وقد كثر الحديث في معناه وأنفذني السلطان لمشاورة الامراء في خدمة الملك العادل فى أمره لجمعهم فى خدمته فذكرت لهم ماراسلني فيه اليهم فانتدب الامير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب وقال نحن عبيده ومماليكه وذلك صبي ور بما حمله خوفه أن انضاف الي جانب آخر ونحن لانقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار فان اراد اننا نقاتل المسلمين صالحنا الكفار وسرنا الى ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه وان أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم. وهذا كان جواب الجميع فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين وحلف له بها واعطاه خطه بما استقر من القاعدة * ثم ان الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد استتمالاته وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها وكنت الرسول بينهما وكان آخر ما استقر انه يسلم تلك البلاد و ينزل عن كل ماهو شامي الفرات ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبقاء وحاصه بمصر بعد النزول عن الجيزة وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء الي المقدس والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ومغل قاطع الفرات في هذه السنة للسلطان أيضاً وأخذ خط السلطان بذلك وسار بنفسه يصلح أمر ابن تقي الدين و يطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادي الاولي *

﴿ذكر استيلاء الفرنج على الداروم﴾

وكان الافرنج خذلهم الله تعالي لما رأوا أن السلطان قد أعطى العساكر

دستورا وتفرقت العساكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه وكان بيد علم الدين قيصر وفيه نوابه . ولما كان يوم تاسع جمادي الاولي اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارساً وكان الانكتار قد استنفذ من نوبة عكا نقابين جبليين فتمكنوا من نقب المكان وأحرقوا النقب وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان فلم يمهلوهم واشتدوا فى القتال عليه فأخذوه عنوة واستشهد فيه من قدر الله له ذلك وأسر من قدر له ذلك وكان ذلك قدرا مقدراً

(ذكر قصدهم لمجدل يابا)

ولما استولي الافرنج على الدارون ساروا بعد ان قرروا أمره ووضعوا فيه من اختارو حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسي وهى قريب من جبل الخليل عليه السلام وذلك رابع عشر جمادى الاولي فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة وخلفوا خيامهم في منزلتهم وكان بها عسكر اسلامي فلقيهم وجري بينهم قتال عظيم وقتل من العدو كند مذكور واستشهد من المسلمين فارس واحد كان سبب قتله انه وقع رمحه فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه وعادوا الى خيامهم بقية اليوم خائبين ولله الحمد

(ذكر وقعة جرت فى صور)

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر انه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وطمعوا نخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد وقتل من العد خمسة عشر

نهرا ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين ولله الحمد

(ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد)

ولما رأي السلطان ما جرى من العدو من التنبط سير الى العساكر من سائر الاطراف أن يسابقوا الى الحضور وكان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان فلقيه السلطان واحترمه ووصل بعده عز الدين ابن المقدم فى سابع عشر جمادي الاولي بعسكر حسن وآلات جميلة ففرح به السلطان

وأما العدو فانه رحل من الحسى ونزل على مفرق طرق منها طريق عسقلان وطريق الي بيت جبرين والى غير ذلك من الحصون الاسلامية ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر ان سارت نحوه فخرج أبو الهيجاء السمين وبدر الدين دلدرم وابن المقدم وتتابعت العسكر وتخلف هو فى القدس النوع التياث كان عرض له فلما أحس العدو والمخذول بظهور العساكر الاسلامية اعاد خائباً خاسرا ناكصا علي عقبيه ووصلت الكتب من الامراء مخبرين برحيل العدو الى عسقلان

(ذكر تعبية العدو لقصد القدس الشريف)

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادي الاولي وصل قاصد من العسكر يخبر ان العدو قد خرج فى راجله وفارسه وسواد عظيم وخيم على تل الصافية فسير السلطان الي العساكر الاسلامية ينذرها ويحذرها واستدعى الامراء جريدة اليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه فوصل ورحل العدو من تل الصافية الى جانب النطرون فنزل سماليه وذلك فى السادس عشر

من جمادي الاولى وكانت قد سارت من عرب الاسلام جماعة للغزاة على يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو فنزلوا في بعض الطريق يقسمون فوقعت عليهم عساكر العدو فاخذوهم وهرب منهم ستة نفر فوصلوا الي السلطان واخبروه الخبر ووصلت الجواسيس وتواترت الاخبار من جانب العدو انه مقيم بالنطرون لنقل الازواد والآلات التي تدعوا الحاجة اليها في الحرب فاذا حصل عندهم ما يحتاجون اليه قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالي . وفي يوم الاربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب عندهم يحدث فى معني قراقوش ويتحدث فى معنى الصلح

﴿ ذكر نزولهم فى بيت نوبة وهو موضع وطأة بين ﴾
﴿ جبال بينا بينه وبين القدس مرحلة ﴾

رحل العدو من النطرون يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادي الاولي ونزلوا بيت نوبة . ولما عرف السلطان ذلك استحضر الامراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأى ان يقسم الاسوار على الامراء ويخرج ببقية العسكر جريدة الى جهة العدو فاذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدوا فان دعت الحاجة اليهم خرجوا وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها فكتبت الرقاع وسيرت الامراء

وكانت طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة الى العدو فامر السلطان من فى اليزك ان يعمل معهم ما يمكنه وكان فى اليزك بدر الدين دلدرم فكمن حول الطريق جماعة جيدة فربهم جمع من خيالة العدو ويحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوهم فحملوا عليهم وجري قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو وقتل منهم ثلاثون نفرا وأسر جماعة ووصل الاساري فى التاسع والعشرين من جمادي الاولي

الى القدس وكان لدخولهم وقع عظيم وجري على العدو من ذلك وهن كبير وقويت قلوب اليزكية وانبعثت هممهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا الي أطراف الخيم ولله الحمد

ولما علم المسلمون أن القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرا وكمنوا كمينا واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فدحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين فخرجت الاتراك عليهم فاخذوا وقتلوا وجرح من الاتراك جماعة وذلك فى ثالث جمادي الآخرة

﴿ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى﴾

وذلك انه كان قد تقدم الي عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو فاقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبين البلاد والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل اليها بالعرب المفسدين . ولما تحقق العدو خبر القوافل امر عسكره بالاحتياط والتحفظ وسار حتي أتي تل الصافية فبات ثم سار حتى اتي الصافية ثم علق علي خيله فئة وسار حتي اتي ماء يقابل حسي واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فانفذ بنذير للقافلة وكان المندوب لذلك الامير أخر أسلم والطنبا العادلى وجماعة من الفرسان المذكورين وأمرهم ان يبعدوا بالقافلة فى البرية ويتباعدوا عن العدو ما أمكن فاتفق أن العسكر وصل الحسي قبل وصول العدو اليه فلم يقيموا عليه وساروا حتى وصلوا القفل والعسكر المصري فاتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم بانهم لم يجدوا فيه ذاعرا ولا أحسوا فيه بخوف فرغبوا فى قرب الطريق وسلكوا بالناس هذا الطريق حتي وصلوا الى ماء الخويلفة

وتفرق الناس لاجل الماء فاخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسي فقام من وقته وسري حتى أتاهم قبيل الصبح وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لامه فاشار اسلم بالمسير ليلا للطريق واستظهارا بالصعود الى الجبل نخاف فلك الدين انه ان رحل بالليل جرى أمر علي القافلة لتبددها فنادى فى الناس أن لا يرحلوا الى الصباح *

وأما الانكتار فبلغنا انه لما بلغه الخبر لم يصدقه وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتي القفل فطاف حوله فى صورة عربى ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريب الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه وانهزم الناس الي جهة القفل والعدو يتلوهم فلما رأوا القفل اعرضوا عن قتال العسكر وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة اقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب أيضاً . وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة . وكان فى العسكر المصرى جماعة من المذكورين كحسين الجراحي وفلك الدين وبني الجاولى وغيرهم من المذكورين . وقتل من العدو زهاء مئتى فارس على رواية . وعشرة أنفس علي رواية . ولم يقتل من المسلمين معروف سوي الحاجب يوسف وابن الجاولى الصغير فانهما استشهدا الي رحمة الله تعالى وتبدد الناس في البرية ورموا أموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنهم جمعة من الخيل والبغال والجمال ولاقمشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية

خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار فى جحفل من الغنية يطلب عسكره فنزل علي الخويلفة فاستقى منها ثم سار حتى أتي الحسى * ولقد حكى لى من كان أسيراً معهم في تلك الليلة وقع فيهم الصوت ان عسكر السلطان قد قصدهم فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ولما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم عادوا الى الرحل وهرب فى تلك الغيبة جمع من أسارى المسلمين وكان الحاكى منهم فسألته بكم حزرتم الجمال والخيل فاخبر ان الجمال تناهز ثلاثة الاف والأساري خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل

وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الاخرة ووصل الخبر الي السطان فى عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة وكنت جالسا فى خدمته وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية فما مر بالسلطان خبر انكي منه فى قلبه ولا اكثر تشويشا لباطنه وأخذت فى تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التسلية *

وكان أصل هـذه القضية أن الامـير أسـلم أشـار عليهم أن يصعدوا الجبل فلم يفعلوا فصعد هو وأصحابه فلما وقعت الكبسة كان هو علي الجبل فلم يصل اليه أحد من العدو ولم يشعروا به . ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة لافرنج وأقام الرجالة منهم يستولون على ماتخلف من المسلمين من الاقمشة ولما تحقق الامـير أسـلم ان الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل اليهم بمن معه من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم دواب من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد * ثم سار العدو يطلب خيامه فكان وصوله الي المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادي الاخرى وكان يوما عظيما عندهم أظهروا فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه وأعادوا

خيمهم الي الوطأة علي بيت نوبة وصح عزمهم علي القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التى كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ورتبوا جماعة علي لد يحفظون الطريق علي من ينقلون الميرة وأنفذوا الكند هري الي صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الي القدس ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد الى الاسوار فقسمها علي الامراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ في افساد المياه بظاهر القدس وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا وأطنب فى ذلك اطنابا عظيما وأرض القدس لايطمع فى حفر بئر بها فيها ماءمعين لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الى العساكر يطلبها من النواحى والبلاد *

﴿ ذكر قدوم الملك الافضل وأمره بالعود عن تلك البلاد ﴾
« وكان قد وصل الي حلب المحروسة »

ولما وصل أمر السلطان اليه بالعود عاد مع انكسار في قلبه وتشويش فى باطنه فوصل الى دمشق مستعتبا ولم يحضر الى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الافرنج سير اليه وطلبه فما وسعه التأخر فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية الي دمشق وكان وصله في يوم الخميس تاسع عشر جمادي الاخرى ولقيه السلطان قريبا من العازرية فترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لأمره وسار وفى خدمته أخوة الملك الظافر وقطب الدين الي ظاهر القدس

❖❖❖

(ذكر عود العدو الي بلادهم وسبب ذلك)

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادي الاخري استحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي فى خيمة السلطان وحضر المشطوب والاسدية بأسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان اكلمهم وأحثهم على الجهاد فذكرت مايسره الله من ذلك · وكان مما قلته أن النبي صلي الله عليه وسلم لما اشتد به الامر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت فى لقاء العدو ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا فى صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤسهم الطير فقال « الحمد لله . والصلاة على رسول الله. اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته. وانتم تعلمون ان دماء المسلمين واموالهم وذراريهم معلقة بذممكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا انتم فان وليتم بانفسكم . والعياذ بالله طوي البلاد طى السجل للكتاب وكان ذلك فى ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا واكلتم مال بيت المال فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام» * فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك الي أن نموت فقال الجماعة مثل ما قال فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه وأطعمهم ثم انصرفوا وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام حتى كانت العشاء الاخرة وجميعنا فى خدمته على العادة وسهرنا حتى مضي من الليل هزيع وهو غير

منبسط على عادته ثم صلينا العشاء وكانت العشاء هي الدستور العام فصلينا واخذنا في الانصراف فاستدعاني فلما جلست في خدمته قال لي علمت ما الذي تجدد قلت لا قال ان أبا الهيجاء السمين أنفذ الى اليوم وقال انه اجتمع عنده جماعة من المماليك وانكروا علينا موافقتنا على الحصار وقالوا لا مصلحة في ذلك فانا نخاف أن نحصر و يجري علينا مثل ماجرى على عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام أجمع والرأي ان نلقى مصاف فان قدر الله تعالى ان نهزمهم ملكنا بقية بلادهم . وان تكن الاخرى يسلم العسكر ويمضى القدس وقد حفظ الاسلام بعسا كره مدة بغير القدس وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال فشقت عليه هذه الرسالة واقمت تلك الليلة في خدمته وهي من الليالي التي احييتها في سبيل الله . وكان مما قالوه في الرساله ان اردت أن نقيم فتكون معنا انت أو بعض اهلك والا فالا كراد لا يدينون للاتراك والاتراك كذلك فانفصل الحال على ان يقيم من اهله مجد الدين بن فخر وشاه وصاحب بعلبك . وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم صرف رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام فلما أن قارب الصبح واشفقت عليه خاطبته في أن يستريح ساعة وانصرفت عنه فما وصلت الا و المؤذن قد أذن فاخذت في أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع فعدت الي خدمته وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قلت له قد وقع لى واقع أعرضه قال وما هو قلت من كثر اهتمامه بما قد حمل على نفسه وقد عجزت اسبابه الارضية ينبغي له ان يرجع الى الله وهذا يوم الجمعة وهو ابرك أيام الاسبوع فيه دعوة مستجابة ونحن في أبر موضع فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لا يشعر أحد انها منه ويصلى بين الاذان والاقامة ركعتين يناجي

فيهما ربه ويفوض مقاليد اموره اليه ويعترف بالعجز عما تصدق له فلعل الله يرحمه ويستجيب دعاءه وكان حسن العقيدة تام الايمان يتلق الامور الشرعية بأكمل انقياد . ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت الى جانبه فى الاقصي فصلي ركعتين ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ثم انقضت الجمعة بخير ولما كانت عشيتها ونحن فى خدمته على العادة وصلت رقعة من جرديك وكان فى اليزك وكان جملة مافيها أن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا فى التل وقت الظهيرة ثم عادوا الي خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم . ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة اخري يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم أختلفوا فى الصعود الى القدس والرحيل الي بلادهم فذهبت الفرنسيسة الي الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه . وقال الانكتار ان هذا الموضع قد افسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا فمن اين نشرب فقالوا له نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقي فقالوا ننقسم قسمين قسم يركب الي السقي وقسم يبقى علي البلد فى المنازلة ويكون الشرب فى اليوم مرة فقال الانكتار اذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين النصرانية فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم وحكم الثلاثمائة اثني عشر وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما امروا به فعلوه فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم تمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكصين ولله الحمد ومضي عسكرهم شاكيا السلاح ولم يبق فى المنزلة الا الآثار ثم نزلوا الرملة وتواترت الاخبار

بذلك فركب السلطان وركب الناس وكان يوم سرور وفرح

﴿ ذكر رسالة الكندهري ﴾

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو حضر رسول الكندهري يقول ان الانكتار قد اعطاني البلاد الساحلية وهي الآن لي فاعد على بلادي حتي أصالحك وأكون أحد أولادك فغضب السلطان لذلك غضبا عظيما بحيث أنه كاد يبطش به فاقيم من بين يديه فسأل أن يمهل ليقول كلمة اخرى فاذن له فى ذلك فقال يقول ان البلاد فى يدك فما الذي تعطيني منها فانتهزه وأقامه

ولما كان اليوم الثالث والعشرين حضر الرسول وكان جوابه ان يكون الحديث بيننا فى صور وعكا على ما كان مع المركيس * ثم وصل بعد ذلك الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الافرنج وذكر ان الانكتار أحضره واحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له قيل لصاحبك انا قد هلكنا نحن وانتم والأصلح حقن الدماء ولا ينبغي أن تعتقد ان ذلك لضعف مني بل للمصلحة ولا تغتر بتأخرى عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح وأن يكون هو الواسطة بينهم وبين السلطان وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب وكان ظاهر الحال الكلام فى اطلاق بهاء الدين قراقوش وباطنه فى معنى آخر وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب الي الكندهري أن نعطى عكا ونصالحه على مال ويتركنا والانكتار على بقية البلاد

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكرا خشية خروج العدو الى النواحى التي تليها فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على

ما يليها من البلاد والرساتيق فثارت عليهم الكمينات من الجوانب وكان قد شعر العسكر الاسلامي بخروجهم فكمن لهم فاخذوا منهم جماعة وقتلوا جماعة ولله الحمد

﴿ ذكر عود رسولهم فى معنى الصلح ﴾

ولما كان يوم الجمعة الساس والعشرين من الشهر عاد رسولهم صحبة الحاجب يوسف وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم وهى ان الملك الانكتار يقول اني راغب فى مودتك وصداقتك وانه لا يريد أن يكون فرعون يملك الارض ولا يظن ذلك فيك ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لي أن أهلك الافرنج كلهم وهذا ابن أختي الكندهرى قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ولو استدعيتهم الي الشنق سمعوا وأطاعوا ويقول ان جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وانا أطلب منك كنيسة وتلك الامور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري فى المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ولو أعطيتني مقرعة أو خربة قبلتها . فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأي واصحاب مشورته وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة فما منهم الا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب وعلاهم من الديون . واستقر الحال على هذا الجواب

اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ان ابن أختك يكون عندى كبعض أولادي وسيبلغك ما افعل معه وأنا أعطيك اكبر الكنائس وهي القمامة وأما بقية البلاد فنقسمها فالساحلية التي بيدك تكون بيدك والذى

يأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ومابين العملين يكون مناصفة وعسقلان وماوراءها يكون خرابا لا لنا ولا لكم وأن اردتم قراها كانت لكم والذي كنت اكرهه حديث عسقلان *

وانفصل الرسول طيب النفس وذلك فى ثانى يوم قدومه وهو الثامن والعشرون واتصل الخبر بعد وصول الرسول اليهم انهم راحلون الي عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين ابن قليج ارسلان يقول إن البابا قد وصل الى القسطنطينية فى خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول اني قتلت فى الطريق اثنى عشر فارسا . ويقول تقدم الى من يستلم بلادى متى فاني قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكترث به

﴿ذكر عود رسول الافرنج ثالثا﴾

ولما كان التاسع والعشرون وصل الحاجب صاحب المشطوب ومعه جفرى رسول الملك فقال ان الملك شكر انعام السلطان وقال ان الذي أطلبه منك أن يكون لنا فى قلعة القدس عشرون رجلا وان من سكن من النصاري والافرنج لا يتعرض اليهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم. وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة انه قد نزل عن حديث القدس ماعدا الزيارة ولكن يقول ذلك تصنعا لضعفنا وانهم راغبون فى الصلح وان الانكتار لا بد له من الرواح الي بلده وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر وكان معه فى هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان فاستحضر الامراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة وانفصل الحال على هذا الجواب وهو أن القدس ليس لكم فيه حديث سوي الزيارة فقال الرسول وليس على

الزوار شيء يؤخذ منهم . فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد كعسقلان وماوراءها فلا بد من خرابه فقال الرسول قد خسر الملك على سورهامالا جزيلا فقال المشطوب للسلطان المصلحة ان نجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارتها فاجاب وان الداروں وغيره تخرب وتكون بلادها مناصفة. وأما باقي البلاد فتكون لهم من يافا الي صور باعمالها . ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة هكذا كان جواب رسالته وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ومعه الحاجب يوسف وكان قدطلب رسولا مذكورا يحلفه ان استقرت القاعدة فأخر السلطان تسيير الرسول الي حين استقرار القاعدة وأنفذلهم هدية حسنة في مقابل هديتهم وما كان يغلب في الهدايا

﴿ذكر عود الرسول﴾

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب فحضر الحاجب ليلا وأخبر السلطان الخبر وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة وهي ان الملك يسأل ويخضع لك ان تترك لههذه الاماكن الثلاثة عامرة وأي قدر لها في ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا في القمامة وحدها فانت تترك لههذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروں الى انطاكية ولكم مافي أيديكم وينتظم الحال ويروح وان لم ينتظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم . فانظر الي هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى . وكان لعنه الله مضطرا الي الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولى في ان يقي المسلمين شره فما

بلونا أعظم حيلة ولا أشد اقداما منه *

ولما سمع السلطان هـذه الرسالة أحضر الامراء وأرباب الرأي من دولته وسألهم عن الجواب مايكون فكان خلاصة الرأى هذا الجواب وهو «ان أهل انطاكية لنا معهم حديث ورسلناعندهم فان عادوا بمانريد أدخلناهم فى الصلح والا فلا . وأما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها اليه وان كانت لاقدرلها . وأما سور عسقلان فيأخذ فى مقابلة ما خسر عليه لدا فى الوطأة وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب »

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره وكان كثير المحبة له والايثار لجانبه لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك فخرج السلطان إلي لقائه فلقيه من قاطع العزازية ونزل له عند لقائه واحترمه واكرمه وضمه اليـه وقبله بين عينيه ونزل فى دار الاسبتار *

ولما كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده وذكر ان الملك قال له لايمكن ان نخرب من عسقلان حجراً واحداً ولايسمع عنا فى البلاد مثل ذلك . وأما البلاد فحدودها معروفة ولامناكرة فيها وعند ذلك تأهب السلطان للخروج الى جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء *

ذكر تبريزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان ان الافرنج رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الي منزلة يقال لها الجيب وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الحادى عشر فدخل الصخره وصلي عندها ثم توجه يتبع السلطان . ثم ان السلطان رحل من الجيب الى بيت نوبة

وبعث الي العسكر فى القدس يحثهم علي الخروج واللحاق به ولحقت السلطان فى بيت نوبة فانى كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ثم رحل فى يوم الاحد الثالث عشر الي الرملة ضحوة نهاره علي تلال بين الرملة ولد فأقام بها بقية الأحد . ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتي أتى بازور وبيت جبرين فأشرف على يافا ثم عاد الى منزلته وأقام بها بقية يومه وجمع أرباب مشورته وشاورهم فى النزول على يافا واتفق الرأى على ذلك

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا نخيم عليها ضحوة النهار ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان طرف الميمنة على البحر وطرف الميسرة أيضاً على البحر والسلطان في الوسط وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل والعساكر فيما بينهما . ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس اليها واستحقروا أمرها استحقارا عظيما ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع فى السور مما يلى الباب الشرقي وشرع النقابون في السور وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف فأخذ النقابون النقب من شمالى الباب الشرقى الى الزاوية بطول البدنة وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الاول وبناه الافرنج وتمكن النقابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس فى أخذ البلد فى هذا اليوم هذا وأمر العدو فى ازدياد وكان الملك قد توجه من عكا الي بيروت وهذا الذى حمل السلطان على نزوله علي يافا ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه وظهر من العدو من

الشدة والحمية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم فما قارب الفراغ أخذ العدو فى خسف النقب عليهم فخسفوه فى مواضع عدة وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وفتر الناس عن القتال وعلموا أن أمر البلد مشكل وانه يحتاج الى زيادة عمل فى أخذه فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقابين أن يأخذوا النقب فى بقية البدنة من البرج الى الباب وأمر المنجنيقات ان تضرب قبالة البدنة المنقوبة ففعلوا ذلك واقام السلطان فى تلك الليلة هناك الي ان مضى من الليل ثلثه وعاد الي الثقل وكان الثقل بعيدا عن البلد على تل قبالته واصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث فى بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس الا الفتور بسبب نصب المنجنيقات ظنا منهم ان المنجنيق لا يعمل الا بعد أيام . ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف فالتحم القتال واشتد الامر واذاقوا العدو مر الحرب فاشرف البلد على الاخذ واتفقت النفوس وطمعت فى ذلك طمعا شديدا وضعف العدو الا انه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد . ولما رأى العدو المخذول ما قد حل به أرسل رسولين نصرانيا وافرنجيا يطلبان الصلح ويتحدثان فيه فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته فاجابوا الي ذلك واشترطوا أن ينظر الى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب فان جاءهم النجدة والا تمت القاعدة على ما استقر فابي السلطان الانظار فعاد الرسول ثم رجعوا يسألونه الانظار فابي ذلك وفتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكونا الي الدعة على جاري العادة فامر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ففعلوا ذلك ووضعت النار فيه فوقع نصف البدنة وكان العدو قد عرف وقوع

النار فى النقب وعلم ان ذلك المكان يقع فعمد الى أخشاب عظيمة وهيأها خلف ذلك المكان فلما وقع ذلك المكان التهبت النيران فمنعت من الدخول الي الثلمة ثم أمر السلطان الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة فلله درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم باسهم فانهم مع هذا كله لم يغلقوا لها بابا ولم يزالوا يقاتلون خارج الابواب أعظم قتال حتي فصل الليل بين الطائفتين ولم نقدر على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقوب في باقي البدنة وضاق صدر السلطان لهذا الامر وتقسم فكره وندم كيف لم يجبهم الى الصلح وبات تلك الليلة فى المخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق تضرب بعضها البدنة الضعيفه بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم *

(ذكر فتح يافا وما جرى فيه من الوقائع)

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنيقات وقد نصبت وحجارتها قد جمعت من الاودية والاماكن البعيدة لعدم الحجر فى ذلك المكان وظلت ترمي البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك الظاهر عز نصره زحفا شديدا وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة فانه كان مريضا وارتفعت الاصوات وضربت الكؤسات وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات وأحاط بهم الويل واشتد عزم النقابين فى ايقاد النار فما مضى من النهار ساعتان الا ووقعت البدنة وكان وقعها كوقع الواقعة ونادي الناس الا ان البدنة قد وقعت فلم يبق من له أدنى ايمان الا وزحف . ولاقلب من العدو الا أرعد ورجف هذا الزحف وهم علي القتال أشد وأحزم . وعلى الموت أعزم واكرم . وذلك انها لما وقعت علالها دخان وغبار . وأظلم الافق وعميت عين النهار . وما تجاسر احد على الولوج خوفا من اقتحام

النار . فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الاسوار . ورماح قد سدت الثلمة حتى غيبت نفوز الابصار . ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم . وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيت رجلين علي ممشى السور يدفعان المتسلق عليه من جهة الثلمة وقد أتي أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل الي داخل وقام رفيقه مقامه متصديا لمثل مالحق صاحبه في ساعة أسرع من لمح العيون بحيث لم يفرق بينهما فارق

ولما رأي العدو ما آل الأمر اليه سيروا رسولين الى السلطان يلتمسون الامان فقال رحمه الله الفارس بالفارس والتركبلي بمثله والراجل بالراجل والعاجز علي قطيعة القدس فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة أشد من إضرام النار فسأل السلطان أن يبطل القتال الى أن يعود فقال لاأقدر علي منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل الى أصحابك فقل لهم يتجاوزوا الى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع فماد الرسول بهذه الرسالة فانحاز العدو الى قلعة يافا بعد ان قتل منهم جماعة عظيمة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالا كثيرة وأثاثا وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قايماز النجمي وكان في طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذي في عكا يخبر فيه ان الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد الي قصد يافا فاشتد عزم السلطان على تتمة الامر وتسلم القلعة ممن لا ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بغنم ونوبتهم عليه فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر غير أن الامان وقع واتفق الصلح فكنت

بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق
النجدة وكان السلطان يشتهي خروجه غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن
اتمام الامر وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم تبق لهم استطاعة
على الحركة وأقام السلطان يحثهم الي ان هوى الليل فلما رأى ماقد نزل بالناس
من التعب ركب وسار الي خيمته الى الثقل وسار الناس الي خدمته ثم نزل
فى خيمته وعدت الى خيمتى وعندى من الخوف ما اقلقنى عن النوم

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الافرنج قد نعق فعلمنا بوصول
النجدة قد وصلت فى البحر فاستدعانى السلطان من وقته وقال لاشك ان
النجدة قد وصلت في البحر وعلي الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم
من النزول والمصلحة أن تسير الي الملك الظاهر وتقول له ان يقف بظاهر
الباب القبلي وتدخل أنت ومن تراه الى القلعة وتخرجون القوم وتستولون
على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بخطك الي الملك الظاهر خارج
البلد وهو يسيرها الي ويسير معي لتقوية البلد مع ذلك عز الدين جرديك
وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني فسرت من ساعتي ومعي شمس الدين
عدل الخزانة حتي أتيت الملك الظاهر وهو نائم علي شليته على تل قريب
البحر فى اليزك وعليه كراغنده وهو بلامة حربه فلا ضيع الله صنعهم في
نصرة الاسلام فايقظته فقام والنوم فى عينيه وسرت فى خدمته وهو يستفهم
مني رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ودخلنا نحن الي يافا وأتينا القلعة
وأمر الافرنج بالخروج فأجابوا الى ذلك وتهيأوا للخروج

﴿ ذكر كيفية بقاء القلعة فى يد العدو ﴾

ولما أجابوا الي الخروج قال عز الدين جرديك لا ينبغي ان يخرج منهم

أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يتخطفهم الناس وكان الناس قد داخلهم الطمع فى البلد وأخذ عزالدين يشتد فى ضرب الناس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعد ولا محصورين فى مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال الامر الى أعلا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان مضي ولما رأيت الوقت كاد يفوت قلت له أن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة فى اخراجهم والسلطان قد أوصاني بذلك فلما عرف السبب فى حرصي أجاب الي اخراجهم ومضينا الي باب القلعة القريب من الباب الدي الملك الظاهر قائم عنده فأخرجنا تسعة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون وحدثتهم نفوسهم بالعصيان وكان سبب خروج من خرجوا أنهم استقلوا المراكب التى جاءتهم وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا ان الانكتار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا ان يمتنعوا فيؤخذوا و يقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين فى الحصن وظهرت عليهم امارات العصيان ودلائله وخرج منهم من أجبرني بتشويش عزمهم وأخذا الطارقيات والجنويات وعلوا علي الاسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد فلما رأيت الامر قد آل الي ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره فى الاسفل مع جمع من الاجناد خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت الاساعة بحيث صرت خارج البلد فى خدمة الملك الظاهر الا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد واخرجوا من كان فى البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقى فى بعض

الكنائس جماعة من أتباع العساكر مشتغلين بما لا يجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وسيرني الملك الظاهر الي ولده السلطان أعرفه بالحال فأمر الجاويش ان ينادي في العسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة وهجموا البلد وحشر العدو في القلعة فأيقنوا بالبوار واستبطاؤا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفا عظيما فارسلوا بطركهم والقسطلان رسولان الي السلطان يعتذران اليه مما جري ويسألان القاعدة الاولي فخرجا الي السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة انهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل . فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفاً وخمسين مركبا منها خمسة عشر شانياً فيها شاني الملك علموا ان النجدة ظنت ان البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة الي الميناء وكانت رملا فلم يصبه شيء واشتد عدواً حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه الي شاني الملك فحدثه بالحديث فلما شعر الانكتار أن القلعة مع أصحابه اندفع يطلب الساحل وكان أول شاني ألقي من فيه بالبر شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر فما كانت الا ساعة حتى نزل كل من في الشواني الي الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء وكان تحتي فرس فسقته الي السلطن وأخبرته الخبر وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان فعرفته في أذنه ماجرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان الا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان فصاح في الناس فركبوا وقبض علي الرسولين وأمر

بترحيل الثقل والاسواق الى بازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا لم يقدروا على نقله ورحل الثقل وبقي السلطان جريدة في الليل وبات ليلته هناك وخرج الانكتار الى موضع السلطان الذى كان فيه لضيق البلد وأمر من فى القلعة ان يخرجوا اليه معظم سواده فاجتمع به جماعة من المماليك وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة

﴿ ذكر حديث الصلح ﴾

ثم طلب الحاجب ابا بكر العادلي وحضر عندهم ايبك العزيزي وسنقر المشطوبى وغيرهم وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به فى أوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلدرم وغيره فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم وما فى هذه الارض للاسلام اكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي والله مالبست لامة حرب ولا تأهبت لأمر وليس فى رجلى الا زدول البحر فكيف تاخر * ثم قال والله العظيم الكريم ماظننت انه ياخذ يافا فى شهرين فكيف أخذها فى يومين. ثم قال لابى بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي فى الصلح فهذا الامر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادي وراء البحر وما في دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان وعرفه ما قال وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على ان الجواب هو «انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث فى يافا وعسقلان والآن قد خربت يافا فيكون

لك من صور الى قيسارية » فمضي اليه وعرفه ماقال فرده اليه ومعه رسول افرنجي وقال يقول الملك « ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطي واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلامه وانا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائما واذا احتجت الى وصلت اليك فى أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتى » فكان جواب السلطان « حيث دخلت هذا المدخل فانا اجيبك بان نجعل هذين البلدين قسمين احداهما لك وهو يافا وما وراءها والثانى لى وهو عسقلان وما وراءها » ثم سار الرسولان ورحل السلطان الي الثقل وكان المخيم بيازور ورتب النقابين لذلك واليزك عندهم وسار حتي أتي الرملة نخيم بها يوم الاحد العشرين من رجب ووصل اليه الرسول مع الحاجب أبي بكر فامر باكرامه والاحسان اليه وكانت رسالته الشكر من الملك على أعطائه يافا وتجديد السؤال فى عسقلان ويقول أنه أن وقع الصلح فى هذه الايام سار الى بلاده ولا يحتاج أن يشتى هاهنا فأجابه السلطان فى الحال بقوله « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيته هاهنا فلابد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت بالضرورة كما تؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعالى . واذا سهل عليه ان يشتى هاهنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته أفلا يسهل علي ان أشتى وأصيف وأنا فى وسط بلادى وعندي أولادى وأهلي ويأتي الى ماأريد وانا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني والعسكر الذى يكون عندى في الشتاء غير العسكر الذى يكون عندي في الصيف وأنا أعتقد انى فى اعظم العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » فلما سمع الرسول

ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل فاذن له فى ذلك فسار الي خيمته وكان
قد تأخر بسبب مرض اعتراه الى موضع يقال له صمويل فسار الرسول
اليه مع جماعة ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا
يافا للانجاد فجمع أرباب الرأي وعقد مشورة فى قصدهم فاتفق الرأى على
أنهم يقصدونهم ويرحل بالثقل الي الجبل ويقصدونهم جريدة فان لاحت
فرصة انتهزوها والا رجعوا عنهم وهذا أولي من أن نصبر حتى تجتمل
عساكر العدو ونرحل الي الجبل فى صورة منهزمين واما اذا وصلنا الآن
ففى صورة طالبين فامر السلطان الثقل أن يسير الي الجبل عشية الاثنين
الحادي والعشرين من رجب وسار هو جريدة فى صبيحة يوم الثلاثاء حتى
نزل على العوجاء ووصل اليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية
ودخل عليها ولم يبق فيه طمع وبلغه ان الانكتار قد نزل خارج يافا فى نفر
يسير بخيم قليلة فوقع له ان ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضا
وعزم على ذلك وسار من أول الليل والادلة من العرب تتقدمه وهو
يقطع الطريق الي ان أتي فى الصباح الى خيام العدو فوجدها تقريبا عشر
خيم فداخله الطمع وحملوا حملة الرجل الواحد فثبتوا فى اماكنهم وكشروا
عن انياب الحرب فوجموا من ثباتهم وسار العسكر حلقة واحدة

ولقد حكي لي بعض الحاضرين فاني كنت تأخرت من الثقل ولم أحضر
هذه الواقعة لالتياث مزاجى أن عدة الخيل كان يحزرها المكثر سبعة
عشر والمقل تسعة والرجال دون الالف فمن قائل ثلاثمائة ومن قائل أكثر
من ذلك فوجد السلطان من ذلك مغيظة عظيمة ودار على الاطلاب يحثها فلم
يجب دعائه سوي ولده الملك الظاهر وقال له الجناح أخو المشطوب قل

لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا واخذوا منهم الغنيمة وكان في قلوب العسكر من صلح يافا حيث فوتوهم الغنيمة ما كان وجرى ماجري ما أثر هذا الاثر . فلما رآي السلطان ذلك رأى ان وقوفه في مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسة في حقه وقد بلغني ان الانكتار أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد فغضب السلطان ثم اعرض عن القتال وسار حتي أتي بازور كالمغضب ونزل بها وذلك في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من رجب وبات العسكر باليزك ثم أصبح يوم الخميس وسار الى النطرون ونزل به وانفذ الي العسكر فاحضره عنده فوصلنا اليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين فبات به فاصبح يوم الجمعة فسار الي أخيه العادل يفتقده ودخل القدس وصلى الجمعة ونظر العمائر ورتبها ثم عاد من يومه الى الثقل وبات فيه علي النطرون

﴿ ذكر قدوم العساكر ﴾

كان أول ما وصل علاء الدين بن اتابك صاحب الموصل وكان وصوله ضحاء نهار السبت السادس والعشرين من رجب فلقيه السلطان على بعد واحترمه واكرمه وانزله عنده في الخيمة وعمل همة حسنة وقدم له تقدمة جميلة ثم سار الي خيمته

واما رسول الملك فانه عاد في ذلك اليوم فان الملك العادل قد حمله رسالة مشافهة الى الملك وعاد مع الحاجب أبي بكر الى يافا فما دابو بكر وحضر عند السلطان في ذلك اليوم وأخبره ان الملك لم يتركني أدخل يافا وخرج الى وكلمني في ظاهرها وكان كلامه الي كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني وانا كنت أحرص أن أعود الي بلادي والآن قد هجم الشتاء وتغير الانواء

وقد عزمت على الاقامة ومابقي بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله تعالى

ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان الي لقائهم وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة الاسدية وكان فى خدمته الملك المؤيد مسعود وقد أظهروا الزينة ونشروا الاعلام والبيارق فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ثم ساروا الي منازلهم

ذكر قدوم الملك المنصور ابن تقي الدين رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التي وعدبها وكان وصوله الى خدمة الملك العادل فى يوم السبت حادي عشر شعبان فنزل عنده بماء صموبل وافتقده وكتب الملك العادل في ذلك اليوم الى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه وإكرامه واطلاق الرحمة له . ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور أستاذن والده فى لقائه وافتقاد الملك العادل فأذن له فى ذلك فسار فوجد الملك المنصور مخيما بيبت نوبة فنزل عنده وخرج الى لقائه وأقام عنده الى العصر وذلك فى يوم الاحد ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتي خيمة السلطان ونحن فى خدمته فدخل عليه فاحترمه ونهض اليه واعتنقه وضمه الى صدره ثم غشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر وغشيه من البكاء مالم ير مثله فبكي الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات فى خيمة الملك الظاهر الي صبيحة الاثنين ثم ركب وعاد الى عسكره ونشروا الاعلام والبيارق وكان معه عسكر جليل فقرت عين السلطان ونزل فى مقدمة العسكر مما يلي الرملة

ذكر رحيه رحمه الله الى الرملة

وذلك انه لما رأى العساكر قد اجتمعت جمع ارباب الرأى وقال ان الانكتار قد مرض مرضا شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وهذا العدو قد أمكن الله منه وأرى أن نسير الي يافا فان وجدنا فيها مطمعا بلغناه والا عدنا تحت الليل الي عسقلان فما تلحقنا النجدة الا وقد نلنا منها غرضا فرأوا ذلك رأيا . وتقدم الى جماعة من الامراء كعز الدين جرديك وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان حتى يكونوا قريبا من يافا في صورة يزك يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك فساروا هذا ورسل الانكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج ووقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ فكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الاخبار بتواتر الرسل والذي انكشف من الاخبار ان فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومائتي فارس على قول المقل وان الكندهرى يتردد بينه وبين الفرنسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا وأنهم لا عناية بسور البلد وانما عنايتهم بعمارة سور القلعة وكان الانكتار قد طلب الحاجب أبابكر العادلي وكان له معه انبساط عظيم . فلما تحقق السلطان الاخبار أصبح يوم الخميس راحلا الى جهة الرملة فنزل بها ضاحى نهار ووصل الخبر من المغيرين يقولون انا أغرنا على يافا فلم يخرج الا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم على بغال فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على انعامه بالفواكه والثلج وذكر أبو بكر انه تفرد به وقال له قل لأخي الملك العادل بمصر كيف يتوصل الي

السلطان فى معني الصلح ويستوهب لى منـه عسقلان وأمضي أنا ويبقي هو فى هذه الشر ذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم فليس لي غرض الا اقامة جاهى بين الافرنج وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخـذ لي منه عوضا عن خسارتى على عمارة سورها

فلما سمع السلطان سيرهم الى الملك العادل وأسر الي ثقة عنده أن يمضي الي الملك العادل ويقول له ان نزلوا عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت فـ ار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان

(ذكر الاجابة الى النزول عن عسقلان)

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور انفـذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول انه قد خرج الينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات وذكروا أن لهم معنا حديثا فهل أسمع حديثهم أولا فاذن له السلطان فى ذلك ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر ان حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها وقد صح مقصوده فى الصلح فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده علي ذلك ويقول ان السلطان قد جمع العساكر وما يمكنني ان أحدثه هذا الحديث الا بأن أثق انك لا ترجع وبعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين علي هذه القاعدة وكتب الى الملك العادل يخبره بما جرى

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان أنفذ بدر الدين وذكر أنه أخذ يده علي هذه القاعدة بمن يثق به وأن حدود البلاد على ما استقر فى الدفعة الاولى مع الملك العادل فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج

الرملة ويبنا ومجدل يابا ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها وحيفا وأعمالها وعكا وأعمالها وأخرج منها الناصرة وصفورية وأثبت الجميع فى ورقة وكتب جواب الكتاب وانفذه على يد طرنطاي مع الرسول وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين فى عصر السبت وقال للرسول هذه حدود البلاد التى تبقي في ايديكم فان صالحتم على ذلك فبارك قد اعطيتم يدي ولينفذ الملك من يحلف ويكون ذلك فى غداة غد والا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة ويكون الامر قد انفصل من بيننا وساروا في بكرة الاحد على هذه القاعدة

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الاحد وصل من أخبر بوصول طرنطاي ومعه الرسول واستأذن فى حضورهما فاذن رحمه الله في حضور طرنطاي وحده فذكره أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأنكر انه نزل عن العوض فاذكره الجماعة الذين خرجوا الي بين يدي دلدرم أنه نزل عن ذلك فقال اذن أنا قلته فلا أرجع عنه. قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة وقد رجعت الي مروءتك فان زدتني شيأ فمن فضلك وانعامك . ثم سار وأحضر الرسل ليلا وأقاموا الي بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ثم انفصلوا الي خيمهم وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الامر وانفصلت القاعدة وسار الامير بدر الدين دلدرم الي الملك العادل وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل فى زيادة الرملة وعاد فى عشاء الاخرة ليلة الاثنين وكتبت المواضعة وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها وهو الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ويراد فيها الرملة لهم ولد أيضاً وسير العدل

وقال له ان قدرت ان ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتها فافعل ولا يكون لهم حديث فى الجبليات ورأي السلطان ذلك مصلحة لما عر الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق الى الاوطان ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا نخاف أن يحتاج اليهم فلم يجدهم فرأى أن يجيبهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه الحالة التى صاروا اليها ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة ويتفرغ لعمارتها*

وكان من القاعدة ان عسقلان تكون خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية ان ناخذها عامرة فلا نخربها فمضي العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس فى الصلح على قاعدة آخر صلح صالحنا هم عليه واستقر الحال على ذلك وسارت الرسل وحكم عليهم ان لا بد من فصل الحال إما الصلح وإما الخصومة خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة*

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبذل الطاعة والموافقة وسير العساكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا فى معنى الزيادات التى لهم فى القدس وعمارتها وشكوا أنها أخذت من أيديهم ويسأل عواطف السلطان ان يردها الي نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العدل الى هناك انزل خارج البلد فى خيمة حتى أعلم الملك به فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة وعرض العدل عليه النسخة وهو

مريض الجسم فقال لاطاقة لي بالوقوف عليها وانا قد صالحت وهذه يدي فاجتمعوا بالكندهري والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة مناصفة و بجميع مافى النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الاربعاء لانهم كانوا قد أكلوا شيأ وليس من عادتهم الحلف بعد الاكل وأنفذ العدل الى السلطان من عرفة ذلك

ولما كان يوم الاربعاء الثانى والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه واعتذر أن الملوك لايحلفون وقنع السلطان بذلك ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهرى ابن اخته المستخلف عنه فى الساحل وباليان بن بارزان صاحب طبرية ورضى الاسبتار والداوية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين الى المخيم السلطانى فوصلوا العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنفري وابن بارزان وجماعة من مقدميهم فاحترموا واكرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر العدل وحكي ماجري

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل فى خدمة السلطان وأخذوا بيده الكريمة وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة واقترحوا حلف جماعة وهم الملك العادل والملك الافضل والملك الظاهر عز نصرهم والمشطوب و بدر الدين دلدرم والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان ان يسير معهم رسلا الى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس وعاق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين فان لم يحلفوا فلا يدخلوا فى الصلح

ثم أمر المنادى أن ينادي في الوطاقات والاسواق ألا ان الصلح قد

انتظم فى سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم ان يدخل الى بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل الي بلادهم فيفعل وأشار رحمة الله عليه أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس وكنت حاضراً ذلك جميعه وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولاخراج الافرنج منها ويكون معهم جماعة من الافرنج الي حين وقوع الخراب فى السور خشية استبقائه عامراً .وكان يوما مشهوداً غشي الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور مالا يعلمه الا الله تعالي والله العظيم ان الصلح لم يكن من ايثاره فانه قال لي فى بعض محاوراته فى الصلح أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعته يعني حصنه وقال لا انزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه وكان كما قال لكنه رأي المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة وكانت مصلحة فى علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة له *

﴿ذكر خراب عسقلان﴾

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر الي خراب عسقلان وسير معه جماعة من النقابين والحجارين واستقران الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ويخرج الافرنج منها فوصلوا اليها من الغد فلما أرادوا التخريب اعتذر الاجناد الذين بها بان لنا على الملك جامكية لمدة فاما ان يدفعها الينا ونخرج أو ادفعوها أنتم الينا فوصل

بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ووقع التخريب فيها فى السابع والعشرين من شعبان واستمر تخريبها وكتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب وأعطي كل واحد قطعة معلومة فى السور وقيل له دستورك فى تخريبها *

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين الي يافا فى طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتي يردهم الي يافا وكثر ذلك من الافرنج وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم *

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامه من جانبه أو كتابة وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج فكان يردمنهم في كل يوم جموع كثيرة يقدمون وأسباط وملوك متنكرون وشرع السلطان في اكرام من يرد ومد الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك ذلك واعتذر الي الملك بان قوما قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم ثم اشتد المرض بالملك فرحل في ليلة التاسع والعشرين وسار هو والكندهري وسائر العدو الى جانب عكا ولم يبق في يافا الا مريض او عاجز ونفر يسير

﴿ذكر عود العساكر الاسلامية الى أوطانهم﴾

ولما انقضي هـذا الامر واستقرت القواعـد أعطى السلطان الناس دستورا وكان أول من سار عسكر اربل فانه سار فى مستهل شهر رمضان المبارك ثم سار بعده فى ثانية عسكر الموصل وسنجار والحصن وأشاع أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به فوقع منه موقعا عظيما وأمر الديوان وكل من عزم علي الحج من العسكر أن يثبت اسمه حتى يحصر عدة من يدخل معنا في الطريق وكتب جرائد بما يحتاج اليه في الطريق من الخلع والازواد وغيرها وسيرها الي البلاد ليعدوها.

ولما أعطي الناس دستورا وعلم عود العدو قد رجع الى ورائه رأي الدخول الي القدس الشريف لتهيئة أسباب عمارته والنظر فى مصالحا والتأهب للمسير الى الحج فرحل من النطرون يوم الاحد رابع يوم شهر رمضان وسار حتي أتي ماء صمويل يفتقد الملك العادل فوجده قد سار الى القدس وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والامير بدر الدين دلدرم والعـدل وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه وكان قد تماثل فعرفناه مجيء السلطان الى ماء صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار معنا حتى لقيه في ذلك المكان وهو أول وصوله الي ماء صمويل ولم ينزل بعد فلقيه ونزل وقبـل الارض وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسار جميعا حتى أتيا القدس الشريف فى بقية ذلك اليوم .

﴿ ذكر وصول رسول من بغداد ﴾

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلي الملك

العادل الجمعة وانصرف الى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في احواله ويعود الى البلاد الشرقية يدبرها فانه كان قد أخذها من السلطان وكان قد ودع السلطان فلما وصل العازرية نزل بها مخيما فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل اليك فانفذ الي السلطان وعرفه فذكر له أن يجتمع ويطالع ما وصل فيه فلما كان السبت الرابع والعشرون دخل الى الخدمة السلطانية وذكر أن الرسول قد وصل اليه من جانب ابن النافذ بعد ان ولي نيابة الوزارة ببغداد ومقصود الكتاب انه يحثه على استعطاف قلب السلطان الي الخدمة الشريفة والدخول بينه وبين الديوان العزيز والانكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة واقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منها وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمة اذا قرر ذلك وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد وما يشبه هذا الفن فحدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل في البين وزاد الحديث ونقص وطال وقصر وقوي العزم السلطاني على انفاذ الضياء الشهرزوري وعاد الملك العادل إلى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه اجابة السلطان الي انفاذ رسول الي خدمة الديوان العزيز وسار يوم الاثنين طالبا جهة الكرك وسار الضياء متوجها الي بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان

﴿ذكر توجه ولده الملك الظاهر الى بلاده ووحشة السلطان له﴾

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر عز نصره بعد أن ودعه ونزل الي الصخرة فصلي عندها وسأل الله تعالى ما شاء ثم ركب

وركبت في خدمته فقال لي قد تذكرت أمراً أحتاج فيه الى مراجعة السلطان مشافية فأنفذ من استأذن له العود الي خدمته فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني وأخلى المكان ثم قال له أوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين الله عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الامراء وأرباب الدولة والاكابر فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقي على أحد وأحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم. وكان ذلك بعد أن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ماشاء الله أن يمضي وهذا ما أمكنني حكايته وضبطه ولم يزل بين يديه الى قريب السحر ثم أذن له في الانصراف ونهض ليودعه فقبل وجهه ومسح رأسه وانصرف في دعة الله ونام في برج الخشب الذي للسلطان وكنا نجلس عنده في الاحياء الى بكرة وانصرفت في خدمته الي بعض الطريق وودعته وسار في حفظ الله

ثم سير الملك الافضل ثقله وأقام يراجع السلطان على لساني في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة علي طريق الغور

(ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف)

وأقام السلطان يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتأهب للمسير الي الديار

المصرية وانقطع شوقه عن الحج وكان من أكبر المصالح التي فاتته ولم نزل كذلك
حتى صح عنده اقلاع مركب الانكتار متوجها الي بلاده مستهل شوال فعند
ذلك حرر السلطان عزمه علي أن يدخل الساحل جريدة ويفتقد القلاع البحرية
الي بانياس ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها اياما قلائل ويعود الي القدس
الشريف سائرا الى الديار المصرية يتفقد احوالها ويقرر قواعدها وينظر في
مصالحها وأمرني بالمقام في القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه وادارة
المدرسة التي انشأها فيه الى حين عوده وسار من القدس الشريف ضحوة
نهار الخميس سادس شوال وودعته الي البيرة ونزل بها واكل فيها طعاما ثم أتي
بعض طريق نابلس فبات فيه ثم أتي نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال فلقيه
خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ويتضورون من سوء رعايته لهم فاقام يكشف
عن أحوالهم الي عصر يوم السبت ثم رحل ونزل بسبسطية يتفقد احوالها ثم أتى في
طريقه الى كوكب ونظر في أحوالها وسد خللها وذلك في يوم الاثنين عاشره

وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من ربقة الاسر يوم الثلاثاء حادي
عشر شوال ومثل في الخدمة السلطانية ففرح به فرحا شديداً وكانت له حقوق
كثيرة على السلطان وعلى الاسلام واستأذن السلطان في المسير الى تحصيل
القطيعة فاذن له في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين الفا والله أعلم *

ولما وصل السلطان الي بيروت وصل الى خدمته البرنس صاحب
أنطاكية مسترفدا فبالغ في احترامه واكرامه ومباسطه وانعم عليه بالعمق
وزرعان ومزارع تبلغ خمسة عشر الف دينار . وكان قد خاف المشطوب في
القدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه وانما كان واليه عز الدين
جرديك وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده الى القدس بعد ان شاور فيه الملك

العادل والملك الافضل والملك الظاهر على لساني وأشار به أهل الدين والصلاح لانه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لاهل الخير فامرني السلطان أن أوليه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ووليته اياه بعد صلاة الجمعة واشترطت عليه الامانة وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه وانعقد الامر وقام به القيام المرضى . وأما المشطوب فانه كان مقيما بالقدس من جملة من كان مقيما بها وتوفي يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن في داره بعد ان صلى عليه في المسجد الاقصي رحمه الله *

﴿ ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة ﴾

وكان عوده اليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح أمور أجنادها وشحنها بالاجناد والرجال ودخل دمشق بكرة الاربعاء السادس والعشرين من شوال وفيها أولاده الملك الافضل والملك الظاهر والملك الظافر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة الخميس السابع والعشرين منه وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وانشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله . ويهطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا في الاوقات المعتادة حتى كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الافضل دعوة للملك الظاهر فانه لما وصل الى دمشق بلغه حركة السلطان اليها فاقام حتي يتملي بالنظر اليه ثانياً وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان فودعه في تلك الليلة مراراً متعددة وهو يعود اليه . ولما اتخذ الملك الافضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته وكانه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله الي حلب وحضرها

أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه *

﴿ ذكر قدوم الملك العادل أخيه ﴾

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك وأمر باصلاح ماقصد اصلاحه منه عاد طالبا البلاد الفراتية فوصل أرض دمشق يوم الاربعاء سابع عشر ذى القعدة وكان السلطان قد خرج الى لقائه وأقام يتصيد حوالى عباب الى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعاً وكان دخولهما الي دمشق آخر نهار الاحد الحادى والعشرين وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون فى أرض دمشق وموطن الظباء وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومرابع تنزهه وهو لا يشعر ونسى عزمه المصري وعرضت له أمور أخري وعزمات غير ذلك ووصلني كتابه الى القدس يستدعينى الي خدمته وكان شتاء شديد ووحل عظيم فخرجت من القدس الشريف فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول الي دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع وكان وصل أوائل الحج على طريق دمشق واتفق حضوري والملك الافضل حاضر فى الايوان الشمالي وفي خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل اليه أحد فدخلت عليه فقام ولقيني لقاءما رأيت أشد من بشره بي فيه ولقد ضمني اليه ودمعت عينه

ذكر لقاء الحجاج

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده فسألني عمن في الايوان فأخبرته ان الملك الافضل جالس في الخدمة والامراء والناس في خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال . ولما كانت بكرة الخميس استحضرني فحضرت عنده في صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن الحاضرين فقيل له رسل الافرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل الافرنج الي ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثيرا مايميل اليه يسمي الامير وكان حاضرا وهو يداعبه فلما وقع بصره على الافرنج ورأي أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكي فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال ان لي اليوم شغلا وكان عادته المباسطة ثم قال احضروا لنا ماتيسر فاحضروا أرزا بلبن وماشابه ذلك من الاطعمة الخفيفة فاكل وكنت أظن أنه ماعنده شهوة وكان في هذه الايام يعتذر الي الناس لثقل الحركة عليه وكان بدنه ملئاناً ممتلئا وعنده كسل فلما فرغنا من الطعام قال ماالذي عندك من خبر الحاج فقلت اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ولكنهم غدا يدخلون فقال نخرج ان شاء الله الى لقائهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فانها سنة كثيرة الانداء وقد سالت المياه في الطرق والانهار وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه ثم ركب في بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلا ثم لقيته وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق الدين وقرالا الياروقي وكان كثير الاحترام للمشايخ فلقيهم ثم لحقه الملك الافضل وأخذ يحدثني فنظرت الى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده وما كان له عادة يركب

بدونه وكان يوما عظيما قداجتمع فيه للقاءالسلطان والتفرج عليه معظم من في البلد فلم أجد الصبر دون أن سرت الي جانبه وحدثته في اهمال هذا فكانه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد الزرد كاش فوجدت لذلك أمرا عظيما وقلت في نفسي السلطان يطلب مالا بد منه في عادته ولا يجده ووقع في قلبي تطير بذلك فقلت له أليس ثم طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير فقال بلي ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيع وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه فسار حتى أتي القلعة فعبرا على الجسر الي القلعة وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركوبه

﴿ مرضه رحمة الله عليه ﴾

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته حمي صفراوية كانت في باطنه اكثر من ظاهره وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمي ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الافضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل وطاب له الحديث الي قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدم الينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الافضل ولم يكن القاضي عادته ذلك فانصرف ودخلت انا الي الايوان وقد مد الطعام والملك الافضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشا وبكي جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه * ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفي النهار وندخل اليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطي الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر اذ كان قد ألفه

مزاجه سفرا وحضرا ورأي الاطباء فصده فقصدوه فى الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى الى غاية الضعف . ولقد جلسنا فى سادس مرضه وأسند ناظهره الي مخدة وأحضر ماء فاتر ليشبره عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله ألا يمكن أحدا تعديل الماء فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضى الفاضل يقول لى أبصر هذه الاخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وأمتنع من تناول المشروب فاشتد الخوف فى البلد وخاف الناس ونقلوا الاقمشة من الاسواق وغشى الناس من الكآبة والحزن مالا يمكن حكايته * ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد فى كل ليلة الي ان يمضى من الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر فى باب الدار فان وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والا عرفونا أحواله من وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الى ان يلاقونا حتي يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا وفرح الناس فرحا شديداً فاقمنا على العادة الى أن مضى من الليل هزيع ثم أتينا الي الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وأنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه جبره الله تعالي ان العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى

على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقده ثم خرج الينا وذكر أن العرق سابغ وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم اصبحنا فى الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرين من صفر فحضرنا بالباب وسالنا عن الاحوال فاخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ فى الفراش ثم فى الحصر وتأثرت به الارض وأن اليبس قد تزايد تزيداً عظيما وحارت فى القوة الاطباء

ذكر تحليف الافضل

ولما رأى الملك الافضل ماحل بوالده وتحقق الناس موته تسرع فى تحلف الناس فى دار رضوان المعرفة بسكناه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته واعتذر الي الناس بأن المرض قد اشتد وما يعلم مايكون ومايفعل هذا الا احتياطاً على جارى عادة الملوك فأول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة فبادر الي اليمين من غير شرط ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون وزاد ان الحصن الذي في يده له وحضر سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق واعتذر بأنه ماحلف به . ثم حضر خشترين حسين الهكاوي وحلف . وحضر أنوشروان الزرزاري وحلف واشترط ان يكون له خبز يرضيه . وحضر علكان وملكان وحلفا ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحلف وحضر ميمون القصرى رحمه الله وشمس الدين الكبير وقالا نحن نحلف بشرط أن لانسل فى وجه أحد من أخوتك سيفاً لكن رأسى دون بلادك . هذا قول ميمون القصرى. وأما سنقر فانه امتنع ساعة ثم قال كنت خلفتني على النطرون وأنا عليها وحضر

سامه وقال ليس لي خبز فقل لى على شيء أحلف فروجع لخاف وعلق يمينه بشرط أن يعطي خبزا يرضيه . وحضر سنقر المشطوب وحلف واشترط ان يرضي . وحضر ايبك الافطس رحمه الله واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير . ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها اني من وقتي هذا صفيت نيتي . وأخلصت طويتي . للملك الناصر مدة حياته واني لا أزال باذلا جهدى فى الذب عن دولته بنفسى ومالي وسيفى ورجالى ممتثلا أمره واقفا عند مراضيه . ثم من بعده لولده الافضل علي وورثته . ووالله انني فى طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسى ومالي وسيفى ورجالي وامتثل أمره . ونهيه وباطني وظاهري فى ذلك سواء والله على ما أقول وكيل *

(ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه)

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهى الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الامر في أوله وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت انا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكي ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت وحضر بيننا الملك الافضل وأمر ان نبيت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فان الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف ان لم ننزل أن يقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا فرأى المصلحة فى نزولنا. واستحضار الشيخ أبي جعفر امام الكلاسة وهو راجل صالح ليبيت بالقلعة حتى اذا احضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالي ففعل

ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات فى تلك الليلة على حال المنتقلين الى الله تعالي والشيخ ابو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالي وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق الا فى أحيان . وذكر الشيخ ابو جعفر انه لما انتهي الي قوله تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة سمعه وهو يقول رحمة الله عليه صحيح وهذه يقظه فى وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد علي ذلك *

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فى وقت وفاته ووصلت وقد مات وانتقل الى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه * ولقد حكي لى أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر الى قوله تعالى لا اله الا هو عليه توكلت تبسم وتهلل وجهه وسلمها الي ربه * وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الا علي ضرب من التجوز والترخص الا فى ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس *

ثم جلس ولده الملك الافضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة الا عن الخواص من الامراء والمعممين وكان يوما عظيما وقد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم

ودام الحال على هذا الي مابعد صلاة الظهر . ثم اشتغل بتغسيله وتكفيه فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ماقيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى فى ثمن التبن الذي يلت الطين وغسله الدولعي الفقيه ونهضت الي الوقوف على غسله فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط . وكان ذلك وجميع مااحتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الاصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة فصلي عليه الناس ارسالا وكان أول من أم بالناس القاضي محي الدين ابن الزكي ثم أعيد الي الدار التى فى البستان وكان متمرضا بها ودفن فى الصفة الغربية منها . وكان نزوله فى حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزي الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الا حزين ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الي بيوتهم اقبح رجوع ولم يعد أحد منهم فى تلك الليلة الا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن *

واشتغل فى ذلك اليوم الملك الافضل بكتابة الكتب الي عمه واخواته يخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثانى جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ثم انفض المجلس فى ظهر ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية وقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الافضل بتدبير أمر ومراسلة اخوته وعمه

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

تم بعون الله والحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه
أجمعين وسلام على المرسلين
والحمد لله رب
العالمين

منتخبات

من كتاب التاريخ لصاحب حماه تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الايوبى رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزبك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزبك الارمني وزير العاضد العلو جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل فى القطر بالسكاكين ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الي بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها وسأل العاضد أن يولي ابنه رزبك الوزارة ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزبك فى الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزبك فولاه الصعيد وكانت

ولاية الصعيد اكبر المناصب بعد الوزارة . ولما جرح الصالح أوصي ابنه العادل أن لا يغير على شاور شيأ لعلمه بقوة شاور ولما تولي العادل بن الصالح الوزارة كتب الى شاور بالعزل فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل الي القاهرة فهرب العادل وطرد وراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رزبك ابن الصالح طلائع بن رزبك وانقرضت بقتله دولة بنى رزبك واستقر شاور فى الوزارة وتلقب بأمير الجيوش وأخذ أموال بنى رزبك وودائعهم ثم ان الضرغام جمع جمعاً ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان فقوي على شاور فانهزم شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين . ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلو له البلاد فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة)

وفى هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا مقدمهم اسد الدين شيركوه بن شاذى الي الديار المصرية ومعهم شاور وكان قد صار من مصر هاربا من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده الي الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه الي مصر فوصل اليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور الي وزارة العاضد العلوي ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشيء مما شرط فسار شيركوه واستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور يستنجد الافرنج على اخراج أسد الدين شيركوه من البلاد فسار الافرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الافرنج حركة نور الدين وأخذه حارم فراسلوا شيركوه في

الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلو الشام سالمين

وفى هذه السنة في رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من الافرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والافرنج انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر عالما كثيرا وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية والقومص صاحب طرابلس وغنم منهم المسلمون شيأ كثيرا

وفى هذه السنة أيضاً فى ذى الحجة سار نور الدين الى بانياس وفتحها وكانت بيد الافرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الى هذه السنة . ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيظرة من الشام وكان بيد الافرنج

ثم دخلت سنة اثنين وستين وخمسمائة وفيها عاد أسد الدين شيركوه الي الديار المصرية وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس فوصل الى ديار مصر واستولي على الجيزة وأرسل شاور الي الافرنج استنجدهم وجمعهم وساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد والتقوا على بلد يقال له الابوان فانهزم الافرنج والمصريون واستولي شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الي الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شيركوه الي جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه اليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الي الشام فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة وسار شيركوه الي الشام فوصل الى دمشق فى ثامن عشر ذى القعدة واستقر الصلح

بين الافرنج والمصريين على أن يكون للافرنج بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار

وفى هذه السنه فتح نور الدين صاميثا والعربية وفيها عصى غازي بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج فسير اليه عسكر أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين بنال بن حسان أخا غازي المذكور فبقى فيها الي أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك ابن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه ولم يقدر نور الدين علي أخذها الا بعد أن اسر صاحبها واحضروه الى نور الدين واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فارسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبى على الزعفراني وأردفه بعسكر اخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جعبر فلم يظفروا منها بشيء ومازالوا على صاحبها مالك حتي سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملوخ من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاغة

﴿ ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك ﴾
(صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية)

وفى هذه السنة اعنى سنة اربع وستين وخمسمائة فى ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي الى ديار مصر ومعه العساكر النورية . وسببه

ذلك تمكن الافرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتي ملكوا بلبيس قهراً فى مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فاحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الافرنج وأمر اهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما فارسل العاضد الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الافرنج على الف الف دينار يحملها اليهم فحمل اليهم مائة الف دينار وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتى الف دينار سوي الثياب والدواب والاسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب علي كره منه . أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بينه . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم . ولما قارب شيركوه مصر رحل الافرنج من ديار مصر على اعقابهم الى بلادهم فكان هذا لمصر فتحاً جديداً ووصل أسد الدين شيركوه الي القاهرة فى رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وأجرى عليه وعلي عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وإيراد ثلث البلاد ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم الي اسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه ومايعدهم الشيطان الا غروراً . ثم ان شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وامرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك . ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك

عزموا علي الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعزالدين جرديك وغيرهما وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده فى المخيم وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعى رضى الله عنه فلقى صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه الي زيارة الشافعى وساروا جميعا الى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور وألقياه الي الارض عن فرسه وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنه فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلا فحضر ولم يمكنه الا اتمام ذلك وسمع العاضد الخبر فارسل الى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه الى العاضد ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهى التي كان فيها شاور واستقر فى الامر وكتب له منشوراً أوله بعد البسملة «من عبد الله ووليه أبي محمد الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين الي السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الامة . أسد الدين ابى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته . وأعلى كلمته . سلام عليك انا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ونسأله أن يصلى علي محمد وآله الطاهرين والأئمة المهديين ويسلم تسليما » ثم ذكر تفويض أمور الخلافة اليه ووصايا أضربنا عنها للاختصار . وكتب العاضد بخطه علي ظهر المنشور « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك امير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الافتخار بان اعتزت خدمتك الي النبوة » ومدحت الشعراء أسد الدين ووصل اليه من الشام مديح العماد الكاتب

قصيدة أولها

بالجد أدركت ما أدرجت لا اللعب	كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذى الملك دعوة من	نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم	من المدى فى العلا ما حزت بالخبب
ملكت من ملك مصر رتبة قصرت	عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين العزيمة من	فتح البلاد فبادر نحوها وثب

وفى شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقى

لقد فاز بالملك العظيم خليفة	له شيركوه العاضدي وزير
هو الاسد الضارى الذى جل خطبه	وشاور كلب للرجال عقور
بغي وطغي حتي لقد طال ضحبه	على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره	ولا زال فيه منكر ونكير

فاما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر فكان آخر العهد به . ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع اتاه أجله حتي اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة . وتوفى يوم السبت الثاني والعشرين من جمادي الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة ايام .وكان شيركوه وأيوب ابناشاذي من بلد دوين قال ابن الاثير وأصلهما من الاكراد الروادية فقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان ايوب اكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظا قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ومر على تركيت خدمه أيوب وشيركوه ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت فاخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي فاحسن اليهما وأعطاهما اقطاعات جميلة . ولما ملك قلعة

بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على اقطاع كثيرة شرطوها له وبقي ايوب من اكبر امراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت ابيه زنكي واقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها وجعله مقدم عسكره فلما اراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب اخاه أيوب فساعد ايوب نورالدين علي ملك دمشق وبقي مع نور الدين الي أن أرسل شيركوه الي مصر مرة بعد اخري حتي ملكها وتوفى فى هذه السنه على ماذكرناه

ولما توفى شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذي وكان قد سار معه على كره قال صلاح الدين امرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه وكان قد قال شيركوه بحضرته يا يوسف تجهز للمسير فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا انساه ابدا فقال نور الدين لا بد من مسيره معي فامرني نور الدين وانا أستقيل فقال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت الضائقة فاعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الي الموت ولما مات شيركوه طلب جماعة من الامراء النوريه التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال المنبجي وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحاوى وهو خال صلاح الدين فارسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم تطعه الامراء المذكورون وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسي الهكاري فسعى الي المشطوب حتى أماله الي صلاح الدين ثم قصد الحاري وقال هذا

ابن أختك وعزه وملكه لك فمال اليه أيضاً ثم فعل بالباقين كذلك فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب نور الدين وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسفهسلا و يكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل الي الامير صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فارسلهم اليه نور الدين فاعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد . ولما فوض الامر الى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر واعرض عن أسباب اللهو وتقمص لباس الجد ودام علي ذلك الي ان توفاه الله تعالي . قال ابن الاثير مؤلف كتاب الكامل رأيت كثيراً ممن ابتدأ الملك ينتقل الى غير عقبه فان معاوية تغلب وملك فانتقل الملك الى بني مروان بعده ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك الى عقب أخيه المنصور ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن احمد فانتقل الملك الى أخيه اسماعيل وعقبه ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب أخيه ركن الدولة ثم ملك طغربل السلجوقي فانتقل ملكه الي عقب أخيه ثم شيركوه ملك فانتقل الملك الى ابن أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك فى عقبه بل انتقل الى أخيه العادل ولم يبق لاولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولي ذلك اولا وأخذ الملوك وعيون اهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبه ذلك *

ولما استقر قدم صلاح الدين فى الوزارة قتل مؤتمن الخلافة و كان مقدم

السودان فاجتمعت السودان فهم حفاظ القصر فى عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السوادن وقتل منهم خلق كثير وتبعهم صلاح الدين فاخلاهم قتلا وتهجيجا وتهيجا وحكم صلاح الدين على القصر واقام فيه بهاء الدين قراقوش الاسدي وكان خصيا أبيض وبقى لا يجري فى القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين *

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة فيها سارت الافرنج الى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمة فحصروها خمسين يوما وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام فرحلو عائدين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها * قال صلاح الدين مارأيت اكرم من العاضد ارسل الي مدة اقامة الافرنج على دمياط الف الف دينار مصريه سوي الثياب وغيرها *

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه * وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين فى عمارة الاسوار وحفظ البلاد اتم قيام وكذلك خرجت بلاد الافرنج فخافوا من نور الدين وأشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خرب من بلاده

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن اقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه حمى حادة * ولما مات صرف ارباب الدولة الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكى بن مودود الى أخيه الذى هو اصغر منه وهو سيف الدين غازي بن مودود فسار عماد الدين زنكي الي عمه نور الدين مستنصرا به . وتوفى قطب الدين وعمره اربعون سنة تقريبا وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفا وكان من احسن الملوك سيرة

وفى سنة ست وستين سار نور الدين محمود بن زنكي الي الموصل وهى بيد أخيه غازى بن مودود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر فاستولي عليها نور الدين وملكها * ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها وأطلق المكوس منها ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي وأعطى سنجار لعماد الدين وهو اكبر من أخيه فقال كمال الدين الشهرزوري هذا طريق الي أذي يحصل للبيت الاتابكى لان عماد الدين كبير لايرى طاعة أخيه سيف الدين وسيف الدين هو الملك لايري الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الاعداء *

وفى هذه السنة سار صلاح الدين عن مصر فغزا بلاد الافرنج قرب عسقلان والرملة وعاد الي مصر ثم خرج الى أيلة وحصرها وهى للافرنج على ساحل البحر الشرقي ونقل اليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها فى العشر الاول من ربيع الاخر واستباح أهلها وما فيها وعاد الى مصر ولما استقر صلاح الدين بمصر كان دار الشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية * وكذلك بني دار العزل مدرسة للشافعية وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعا ورتب قضاة شافعية وذلك فى العشرين من جمادي الاخرة * وكذلك اشترى تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين منازل العز وبناها مدرسة للشافعية

(ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية)

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله . وكان سبب الخطبة العباسية بمصر انه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر واقام فيه قراقوش الاسدى وكان خصيا ابيض وبلغ نور الدين ذلك ارسل الى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية

واقامة الخطبة العباسية فراجعه صلاح الدين فى ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين الي ذلك وأصر عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعو خطبة العاضد فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته وتوفى العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفى العاضد جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع مافيه وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف فمن ذلك الجبل الياقوت وكان وزنه سبعة عشر درهما أوسبعة عشر مثقالا قال ابن الأثير مؤلف الكامل أنا رأيته ووزنته . ومما حكي انه كان بالقصر طبل للقولنج اذا ضرب الانسان به ضرط فكسر ولم يعلموا به الا بعد ذلك ونقل صلاح الدين أهل العاضد الي موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه وكأن لم تغن بالامس . ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة ولم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه وجميع من خطب له منهم أربعه عشر خليفة المهدى . والقائم . والمنصور . والمعز . والعزيز . والحاكم . والظاهر . والمستنصر . والمستعلي . والآمر . والحافظ . والظافر . والفائز . والعاضد . وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلجماسة فى ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين الي أن توفى العاضد فى هذه السنة أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمررت . ولم

تصف الا وتكدرت . بل صفوها لم يخل من الكدر

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر الى بغداد ضربت لها البشائر عدة
ايام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم الي نور
الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت الاعلام السود. وكان العاضد المذكور
قد رأى فى منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد
للعاضد ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعي من يعبر الرؤيا وقص مارآه
عليه فعبر له بوصول أذى اليه من شخص بذلك المسجد فتقدم للعاضد الي
والي مصر باحضار من بذلك المسجد فأحضر اليه شخصا صوفيا يقال له
نجم الدين الخو بشاني فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب مقامه بالمسجد
المذكور فاخبره بالصحيح فى ذلك ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه
فوصله بمال وقال له ادع لنا ياشيخ وأمره بالانصراف فلما أراد السلطان
صلاح الدين ازالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى فى ذلك فأفتاه بذلك
جماعة من الفقهاء وكان نجم الدين الخو بشاني المذكور من جملتهم فبالغ فى الفتيا
وصرح فى خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في
ذلك فصح بذلك رؤيا العاضد

وفى هذه السنة جري بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة فى
الباطن . كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك وهى للافرنج ثم رحل عنها
خوفا أن يأخذه فلا يبق مايعوق نور الدين عن قصد مصر فنزله ولم يفتحه
لذلك وبلغ نور الدين ذلك فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين * ولما استقر
صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال بلغني أن نور الدين يقصدنا
فما الرأي فقال تقي الدين عمر ابن أخيه نقاتله ونصده وكان ذلك بحضره أبيهم

نجم الدين أيوب فانكر على تقي الدين ذلك وقال أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الارض بين يديه بل اكتب وقل لنور الدين انه لو جاءني من عندك انسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرني اليك سارعت الى ذلك وانفضوا على ذلك ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله ولكن ان أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ماهو فيه ويقصدنا ولا تدري مايكون من ذلك واذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة وفي هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش الى افريقية ونزل على صرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها واستولي عليها وملك كثيرا من بلاد افريقية

وفيها سار نور الدين الي بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان واستولى على مرعش وبهسني ومرزبان وسيواس فارسل اليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لاأرضى الابان ترد ملطيه على ذي النون بن الدانشمند وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولي على سيواس وطرد ابن الدانشمند

وفيها سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك عائدا الى مصر وأرسل تحفاً الى نور الدين واعتذر بان أباه

أيوب مريض وخشي أن يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عـذره فى الظاهر وعلم المقصود

ولمـا وصل صلاح الدين الي مصر وجد أباه أيوب قدمات * وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل الى قصره وبقى أياما ومات فى السابع ومعشرين من ذى الحجة من هذه السنة وكان عاقلا حسن السيرة

(ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن)

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة وكان صلاح الدين واهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملـكة غير مصر بحيث ان قصدهم نور الدين قاتلوه فان هزمهم التجأوا الي تلك المملـكة فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الي النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره فى هـذه السنة بعسكر الى اليمن وكان صاحب اليمن حينئذ انسانا يسمي عبد النبي المقدم الذكر فى سنة أربع وخمسين وخمسمائة فتجهز توران شاه ووصل الى اليمن وجري بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملـكها وأسر عبد النبي ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه فهزمه توران شاه فهجم عدن وملـكها وأسر ياسر أيضا واستولى توران شاه على بلاد اليمن واستقرت فى ملك صـلاح الدين واستولي على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن

(ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني)

فى هـذه السنة فى رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان

المصريين فانهم قصدوا الوثوب عليه واعادة الدولة العلوية فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم . فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس . وداعى الدعاة وعمارة بن على اليمني الشاعر الفقيه . وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق باحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها

رميت يادهر كف المجد بالشلل * وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

جدعت مارنك الاقنى فأنفك لا * ينفك ما بين أهل الشين والخجل

مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل

وفى هذه السنة توفى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ابن اقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الاربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين وكان يريد ان يخلي ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود في الشام قبالة الافرنج ويسير هو بنفسه الى مصر فأتاه أمر الله الذى لامرد له وكان نور الدين اسمر طويل القامه ليس له لحية الا في حنكه حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر وكان مولد نور الدين سنة احدي عشر وخمسمائة وطبق ذكره الارض حسن سيرته وعدله * وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم وكان يصلي كثيراً من الليل فكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبى حنيفة رضي الله عنه وليس عنده فيه تعصب وهو الذى بني أسوار مدن الشام منها دمشق وحمص وحماه

وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله *

ولما توفى نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده وعمره احدي عشرة سنة وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها وضربت السكة باسمه وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم *

ولما مات نور الدين وتولي ابنه الملك الصالح سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي وملك جميع البلاد الجزرية *

﴿ ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر ﴾

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين فارسل صلاح الدين اليه عسكرا فاقتتلوا وقتل الكنز جماعة معه وانهزم الباقون *

﴿ ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها ﴾

فى هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين بن أيوب دمشق وحمص وحماه * وسببه ان شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الي حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح الي حلب مع سعد الدين كمشتكين ولما

استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته وقبض على الرئيس ابن الخشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح فخافه بن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في سبعمائة فارس ولم يلبث ان وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ونزل بدار ابيه أيوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال *

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب وسار الي حمص مستهل جمادي الاولي وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكث فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم فى القلاع حكم الا بارين فان قلعتها كانت له أيضا ونزل صلاح الدين على حمص فى حادي عشر جمادى الاولي وملك المدينة وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ورحل الي حماة فملك مدينتها مستهل جمادت الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع فى القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من جرديك المسير الي حلب فى رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك الي حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك

الي حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها ثم سار صلاح الدين الي حلب وحصرها وبها الملك الصالح فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين الي سنان مقدم الاسماعلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصر الحلب الي مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الافرنج على حمص ونزول صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار الي حمص فرحل الافرنج عنها ووصل صلاح الدين الي حمص وحصر قلعتها وملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة ثم سار الى بعلبك فملكها * ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي وجعل مقدم الجيش اكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار وطلب أخاه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير فى النجدة أيضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وسار الى صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وان يقر بيده دمشق ويكون فيها نائبا للملك الصالح فلم يجيبوا الي ذلك وساروا الي قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين وعسكره اموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم فى حلب وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين فى الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام

وللملك الصالح مابقي بيده منهم فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب فى العشر الاول من شوال من هذه السنة .

وفى العشر الاخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني وكان فخر الدين المذكور من أكابر الامراء النوريه *

(ذكر انهزام سيف الدين غازى صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين)

ثم دخلت سنة احدي وسبعين وخمسمائة وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى فقاتله السلطان فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما وتمت على سيف الدين غازى الهزيمة حتى وصل الي الموصل مرعوبا وقصد الهروب منها الي بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل واستولي السلطان صلاح الدين علي أثقال عسكر الموصل وغيرهم مافيها ثم سار الي نزابه وحصرها وتسلمها ثم سار الى منبج فحصرها فى آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه فسار ينال الي الموصل فاقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ثم سار السلطان صلاح الدين الي عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة فوثب الاسماعيلي علي صلاح الدين فى حصاره عزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين الاسماعيلى وبقى يضرب بالسكين فلا يؤثر حتي قتل الاسماعيلى على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل

أيضا ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وعرض جنده وأبعد من انكره منهم * ولما املك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسألوه فى الصلح فأجابهم اليه وأخرجوا اليه بنتا صغيرة لنور الدين فاكرمها وأعطاها شيأ كثيرا وقال لها ماتر ومين فقالت أريد قلعة عزازوكانوا قدعلموهاذلك فسلمها السلطان اليهم واستقر الصلح ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنين وسبعين *

وفى سنة احدي وسبعين فى رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن الى الشام وأرسل الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله *

ثم دخلت سنة احدي وسبعين وخمسمائة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصيات فارسل سنان مقدم الاسماعيلية الي خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمى صاحب حماه يسأله أن يسعي فى الصلح فسأل الحارمى الصفح عنهم فأجابه صلاح الدين الي ذلك وصالحهم ورحل عنهم وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل الي مصر فانه كان بعد عهده بها بعد ان استقر له ملك الشام * ولما وصل الى مصر فى هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمى، لم يزل العمل فيه الي ان مات صلاح الدين

وفى هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التى علي قبر الامام الشافعي رضى الله عنه بالقرافة وعمل بالقاهرة مارستان

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وفى جمادى الاولي منها سار

السلطان من مصر الي الساحل لغزو الافرنج فوصل الى عسقلان فى الربع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره فى الاغارات وبقى السلطان في بعض العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليه فقاتلهم أشد قتال وكان لتلقى الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه تقى الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثراً كبيراً وعاد سالما فأمره أبوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الافرنج السلطان فمضى منهزما الى مصر على البرية ومعه من سلم فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشا شديداً وهلك كثير من الدواب وأخذت الافرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون فى الاغارات أسرى وأسر الفقيه عيسى وكان من اكبر أصحاب السلطان فافتداه السلطان من الاسر بعد سنتين بستين الف دينار ووصل السلطان الي القاهرة نصف جمادى الآخرة . قال الشيخ عز الدين على بن الاثير مؤلف الكامل رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين الى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الواقعة وفى أوله

« ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر »

ويقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه الا لأمر يريده الله سبحانه وتعالي »

وفى هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة فى جمادى الاولى وطمع الافرنج بسبب السلطان بمصر وهزيمته من الافرنج ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك فى اللذات. مائلا الي الراحات.ولما حصروا

حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض واشتد حصار الافرنج لحماة وطال زحفهم عليها حتي أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا ثم جد المسلمون في القتال واخرجوا الافرنج الى ظاهر السور وأقام الافرنج كذلك علي حماة اربعة أيام ثم رحلوا عنها الى حارم وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان له ابن من أحسن الناس شباب مات قبله بثلاثة أيام

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب علي سعد الدين كمشتكين وكان قد تغلب على الامر وكانت حارم لكمشتكين فارسل الملك الصالح اليهم فلم يسلموها اليه فامر كمشتكين ان يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات من العذاب وأصر أصحابه علي الامتناع ووصل الافرنج الى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصروا حارم مدة أربعة أشهر فأرسل الملك الصالح مالا للافرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم وقد بلغ أهله الجهد وبعد أن رحل الافرنج عنها أرسل الملك الصالح اليها واستناب بقلعة حارم مملوكا لابيه اسمه سرخك *

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق الى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك فأرسل الي ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصي بها ولم يسلمها فارسل السلطان وحصره ببعلبك وطال حصارها فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض فعوض عنها وتسلمها السلطان واقطعها أخاه توران شاه*

وفيها كان بالبلاد غلاء وتبعه وباء شديد* وفيها سير السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر الى حماة وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما فاستقر كل منهما ببلده

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة وفيها سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الافرنج عند مخاضة الاجزان بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب * وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب وبين عسكر قلج أرسلان صاحب الروم . وسببها ان حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قلج وأرسل اليه عسكرا كثيرا ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفا وسار اليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين الفا

(ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم)

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن وأمه ام ولد أرمينة وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما وكان حسن السيرة وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار بعد عضد الدين الوزير فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الامام الناصر لدين الله ولما استقرت البيعة للامام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين أبو الفضل وقبض في سابع ذي القعدة علي ابن العطار ونقل الي التاج وأخرج ميتا على رأس حمال ليلة الاربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا يضعون في يده مغرفة يعني انها قلم وقد غمست تلك المغرفة في العذرة ويقولون وقع لنا يا مولانا هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم ثم خلص منهم ودفن

وفي هـذه السنة فى ذي القعدة نزل توران شـاه أخو السلطان عن بعليك فطلب عوضها الاسكندرية فاجابه السلطان الي ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فخر شاه بن شاهنشاه بن أيوب فسار اليها فخر شاه وسار شمس الدولة توران شاه الى الاسكندرية وأقام بها الى ان مـات *

﴿ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصلى ﴾

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة وفى هذه السنة ثالث صفر توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بن اقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية وكان مرضه السل وطال وكان عمره نحو ثلاثين سنه وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثـلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة لا يدخل بيته غير الخدم اذا كانوا صغارا فاذا كبر أحدهم منعه وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه وأوصى بالملـكة بعده الي أخيه عز الدين مسعود بن مودود واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجار شاه فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز *

وفى هذه السنة سار السلطان الى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل الي رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمنى وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون علي مال حمله واسرى أطلقها

وفيها توفى شمس الدولة توران شاه ابن ايوب أخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وغيرهما وكان أجود الناس وأسخاهم كفا يخرج كل مايحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية ومع هذا فلما مات كان عليه نحو

مئتي الف دينار مصرية فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل الى مصر في هذه السنة في شعبان واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك *

ثم دخل سنة سبع وثمانين وخمسمائة وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشرقية وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها وأقام في مقابلة البرنس ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة *

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز اليه عسكرا مع جماعة من امرائه فوصلوا الي اليمن واستولوا عليه وكان نواب توران شاه علي عدن عز الدين عثمان وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر .

* ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب *

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسعة عشر سنة ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر فمات ولم يستعمله وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما لامور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشاب واوصى بملك حلب الي ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل الي حلب واستقر في ملكها . ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار

فأشار قيماز بذلك فلم يمكن مسعود الاموافقته فأجاب الي دلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها سنجار الى أخيه مسعود وعاد مسعود الى الموصل

(ذكر مسير السلطان صلاح الدين الي الشام)

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر الي الشام * من عجيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيأ في الوداع وفراقه وفى الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه وتكدر المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر مع طول المدة وسار السلطان وأغار فى طريقه على بلاد الافرنج وغنم ووصل الي دمشق فى حادى عشر صفر من هذه السنة. ولما سار صلاح الدين الي الشام اجتمعت الافرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار إلي الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على ما يجاوره من بلاد الافرنج وأرسل الي السلطان وبشره بذلك *

(ذكر ارسال سيف الاسلام الي اليمن.)

فى هذه السنة سير السلطان اخاه سيف الاسلام طغتكين الي بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها وكان بها حطان بن منقذ الكناني وعزالدين عثمان الزنجيلي قد عاد الى ولايتها فان الامير الذى كان سيره السلطان نائبا

الي اليمن تولي وعزلها فمادت بين حطان وعثمان الفتن قائمة فوصل سيف الاسلام الي زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع فلم يزل سيف الاسلام يتلطف به حتى نزل اليه فأحسن صحبته ثم ان حطان طلب دستورا الى الشام فلم يجبه الا بعد جهد فجهز حطان اثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الاسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع اثقاله وأخذ جميع أمواله . وكان من جملة ما أخذه سيف الاسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا ثم سجن حطان فى بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به . فأما عثمان الزنجيلى فانه لما جري لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله فى البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مال عثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الاسلام

(ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولي عليه من البلاد)

فى وهذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الاول ونزل قريب طبرية شن الغارات على بلاد الافرنج مثل بانياس وجبنين والغور فغنم وقتل وعاد الى دمشق ثم سار عنها الي بيروت وحصرها واغار على بلادها ثم عاد الى دمشق ثم سار من دمشق الى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين وكان حينئذ صاحب حران وكاتب السلطان ملوك تلك الأطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وسار معه ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها الى مظفر الدين كوكبوري بن قطب الدين بن ينال حسان المنبجي فسار ينال الي عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين الى الخابور وملك قرسيسية وماكسين وعربان والخابور واستولي على

خابور جصيمة ثم سار الى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة ثم أقطع نصيبين أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق وضايق الموصل فنزل السلطان محاذاة باب كندة ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ونزل تاج الملوك تورى أخو صلاح الدين على باب العمادى وجري القتال بينهم وكان ذلك فى شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل الي سنجار وحاصرها وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين من اكابر الامراء وأحسنهم صورة ومعنى ثم سار السلطان الى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين

(ذكر غير ذلك من الحوادث)

فى هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا فى بحر أيلة وسار فى البحر فرقتان فرقة أقامت علي حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون فى السواحل وبغتوا المسلمين فى تلك النواحي فانهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن اخيه السلطان فعمر أسطولا فى بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لؤلؤ وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفرا شجاعا فسار لؤلؤ مجدا فى طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم ثم سار فى طلب الفرقة الثانيـة وكانو قد عزموا على الدخول الي الحجاز ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحوار وتقاتلوا أشد

قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤا كثرهم وأخذ الباقين أسرى وارسل بعضهم الى منى لينحروا بها وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله وكان فرخشاه شجاعا كريماً فاضلا وله شعر جيد ووصل خبر موته الي صلاح الدين وهو فى البلاد الجزرية فارسل الى دمشق شمس الدين بن محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها وأقر بعلبك علي بهرام شاه بن فرخشاه المذكور

وفيها توفى بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى الفقيه الشافعي ولد سنة خمس وخمسمائة وهو الملقب قطب الدين وكان اماما فاضلا فى العلوم الدينية قدم الي دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين وكان السلطان يقرئها اولاده الصغار*

(ذكر ماملكه السلطان صلاح الدين من البلاد)

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال فى العشرون الاول من محرم وسلمها الي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود بن سكمان بن ارتق صاحب حصن كيفا ثم سار الي الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها ثم سار الي عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذى كان خازن نور الدين محمود ابن زنكي وكان قد سلم نور الدين عينتاب الي اسماعيل المذكور فبقيت معه الى الآن فحصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها اليه فأقره السلطان عليها وبقى فى خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ثم سار السلطان الى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكى وطال الحصار عليه وكان قد كثرت اقتراحات امراء

حلب عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب لذلك فاجاب السلطان الي تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك وسلم حلب الي السلطان فى صفر من هذه السنة فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور «ياحمار. بعت حلب بسنجار .» واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور الى خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاه ولا يحتج بحجة عن ذلك ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر * مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك تورى بن أيوب أخو السلطان الاصغر وكان كريما شجاعا طعن فى ركبته فانفلقت فمات منها

ولما استقر عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل فبينما هم فى سرورهم اذ جاءهم انسان فاسر الي السلطان بموت أخيه توري فوجد عليه فى قلبه وجداعظيما وأمر بتجهيزه ولم يعلم السلطان فى ذلك الوقت أحدا ممن كان فى الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ماهم فيه وكان يقول السلطان ماوقعت علينا حلب رخيصة بموت توري وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم

ولما ملك السلطان حلب أرسل الي حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح فى تسليم حارم وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الافرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الي السلطان فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان ابن جند

(ذكر غير ذلك من الحوادث)

فى هذه السنة قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز .

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولد الملك الظاهر غازى وسار الى دمشق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الاردن تاسع جمادى الآخر فاغار على بيسان وحرقها وشن الغارات على تلك النواحى ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل الى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكرك فساروا اجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها ثم رحل عنها فى منتصف شعبان وسار معه أخوه وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر الي مصر نائبا عنه موضع الملك العادل ووصل السلطان الي دمشق وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره اليها فى شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق .

وفى هذه السنة فى أواخرها توفي شاهرمن بن سكمان بن ظهير الدين ابراهم بن سكمان القبطي صاحب خلاط وقد قدم ذكر ملك شاهرمن المذكور في سنة احدي وعشرين وخمسمائة وكان عمر سكمان لما توفى أربعا وستين سنة ولما مات سمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل الي خلاط وكان اكثر اهلها ومماليك شاهرمن متفقين معه وأول وصوله استولي على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاهرمن واستقر فى مملكة خلاط حتى قتل فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة حسبما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر غزو السلطان الكرك ﴾

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة وفيها فى ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة وكتب الي مصر فسارت عساكرها اليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق حبيب وقصد السلطان طمه فلم تقدر لكثرة المقاتلة فجمعت الافرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان الا الرحيل فرحل عن الكرك وسار اليهم فأقاموا فى أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم وسار من الافرنج جماعة ودخلوا الكرك فعلم بامتناعه عليه وسار الي نابلس ونهب ما بتلك النواحى وقتل وأسر وسبي فاكثر ثم نزل الي سبسطية وبها مشهد زكرياء عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار الي جبنين ثم عاد الي دمشق *

وفى هذه السنة توفى شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل ابن أبى سعيد احمد وكان قد سار من عند الخليفة الي السلطان فى رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال واتفق انهما مرضا بدمشق وطلبا المسير الي العراق وسار في الحر ومات بشير فى السخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا

وفيها فى محرم أطلق عز الدن مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس وأحسن اليه

(ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل)

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني فأرسل اليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بايديهم فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما وفيهن بنت نور الدين وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة فسار من الموصل الى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها

وفي هذه السنة توفى نور الدين محمد بلا قره أرسلان بلا داود صاحب حصن كيفا وآمد وملك بعده ولده سكمان ولقب قطب الدين وكان صغيرا فقام بتدبيره القوام بلا سماق الاسعردي وحضر سكمان الى السلطان وهو نازل على ميا فارقين فاره على ما كان بيد ولده وأقام معه أميرا من أصحاب سكمان المذكور *

(ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميا فارقين)

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميا فارقين وكانت لصاحبها ماردين الذي توفى وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفي فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادي الاولي ثم ان السلطان رجع عن قصد خلاط الى الموصل فجاءه رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدا الى حران فلحقته رسل صاحب الموصل بالاجابة الي ماطلب وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان شهر زور واعمالها وولاية القرابلي وجميع ماوراء الزاب وأن

يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وما بيده وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد ووصل السلطان الى حران وأقام بها مريضا واشتد به المرض حتي أيسوا منه ثم انه عوفى وعاد الى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم .ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذى صاحب حمص الى حمص وكاتب بعض اكابر دمشق فى ان يسلموا اليه دمشق اذامات السلطان

وفى هذه السنة ليلة عيد الاضحي شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى فأصبح ميتا قيل ان السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكاتبته أهل دمشق فى مرضه ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف صاحب حمص شيأ كثيرا من الدواب والآلات وغيرها فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص فى عوده من حران وأخذ اكثرها ولم يترك الا مالا خير فيه

﴿ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل ابن السلطان من مصر الي دمشق﴾

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفيها أحضر السلطان ولده الملك الافضل من مصر وأقطعه دمشق وسببه أن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى السلطان كان نائب عمه بمصر وكان معه الملك الافضل فأرسل تقى الدين يشتكى من الافضل انني لا اتمكن من استخراج الخراج فانني اذا احضرت من عليه الخراج واردت عقوبته يطلقه للملك الافضل فارسل السلطان أخرج ابنه الافضل من مصر واقطعه دمشق وتغير السلطان على تقى الدين

في الباطن فانه ظن انه انما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر اذا مات السلطان ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيز عثمان ابن السلطان نائباً عنه بمصر واستدعي تقى الدين من مصر . فقيل انه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولى على بعض بلاد افريقية وبرقة من المغرب وبلغ السلطان ذلك فساءه وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر . ولما حضر تقى الدين ألي السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع اعمالها واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر . ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل اقطعه عوضها حران والرها*

(ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل)

وفي هذه السنة فى أولها توفي البهلوان محمد ابن الدكز صاحب بلد الجبل وهمذان والرى واصفهان واذربيجان واارانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغريل بن ارسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان وله خطبة في بلاده وليس له من الامر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولي على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب

(ذكر غير ذلك من الحوادث)*

فى هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك واخذ قافلة عظيمة من المسلمين واسرهم فارسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التى كانت

بينهم على ذلك فلم يفعل فنذر السلطان انه ان أظفره الله به قتله بيده

﴿ ذكر غزوات السلطان وفتوحاته ﴾

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وفيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الافضل فاغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئا كثيرا ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته فارسلت الافرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فسار معهم واجتمع الافرنج للقاء السلطان

﴿ ذكر وقعة حطين وهى الوقعة العظيمة التى فتح الله بها الساحل وبيت المقدس ﴾

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الافرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم وساروا الى السلطان فركب السلطان من عند طبرية وسار اليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال ولما رأى القومص شدة الامر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقى الدين صاحب حماة فافرج له وعطف عليه ونجا القومص ووصل الى طرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غبنا ونصر الله تعالى المسلمين وأحدقوا بالافرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسروا وكان من جملة من أسر ملك الافرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية

وما أصيب الافرنج منذ خرجوا الي الشام في سنة احدي وتسعين وأربعمائة الى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأحضر ملك الافرنج وأجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا فسقي ملك الافرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون مانا له ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين فقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الافرنج فسكن جاشه . ثم عاد السلطان الي طبرية وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان ثم أرسل الي اخيه العادل فنازل مجدليابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكرة ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلشا والغولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالطيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن وأرسل فرقة الى نابلس فملكوا قلعتها بالامان ثم سار الملك العادل بعد فتح مجد اليابا الى يافا وفتحها عنوة بالطيف ثم سار السلطان الي تبنين ففتحها بالامان ثم سار الى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادي الاولى من هذه السنة ثم سار الي بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادي الاولي بالامان وكان حصرها مدة ثمانية أيام وكان صاحب جبيل من جملة الاسري فبذل جبيل بان يسلمها ويطلق سراحه فاجيب الي ذلك وكان صاحب جبيل من أعظم الافرنج وأشدهم عداوة للمسلمين ولم تكن عاقبة اطلاقه حميدة وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه وفيها حضر المركيس في سفينة الي عكا وهي للمسلمين ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء فراسل

المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمرا بعد أمر والملك الافضل يجيب الي ذلك المركيس الي أن هب الهواء فأقلع المركيس الي صور واجتمع عليه الافرنج الذين بها وملك صور وكان وصول المركيس الى صور واطلاق الافرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان وحملهم الي صور من أعظم أسباب الضرر الذى حصل حتى راحت عكا وقوى الافرنج بذلك

ثم سار السلطان الي عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما وتسلمها بالامان سلخ جمادي الآخرة ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك . ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصاري عدد يفوت الحصر وضايق السلطان السور بالنقابين واشتد القتال ونقبوا السور وطلب الافرنج الامان فلم يجبهم السلطان الى ذلك وقال لا آخذها الا بالسيف مثل ماأخذها الافرنج من المسلمين فعادوا في الامان وعرفوه ماهم عليه من الكثرة وانهم ان أيسوا من الامان قاتلوا خلاف ذلك القتال فأجابهم السلطان الي ذلك وشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال عشرة دنانير وتؤدي النساء خمسة ويؤدوا عن كل طفل دينارين وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا فأجيب الي ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية علي أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور فخان المرتبون في ذلك ولم يحملوا الا القليل

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من الافرنج بالتفجع والتوجع وكان الافرنج قد عملوا غربى المسجد الاقصي هريا ومستراحا فأمر السلطان بازالة ذلك

واعادة الجامع الى ما كان عليه . وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبراً بحلب تعب عليه مدة وقال هذا لاجل القدس فأرسل السلطان احضر المنبر من حلب وحمله فى المسجد الاقصى وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعوية

ثم رحل السلطان الي عكا ورحل منها الى صور وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشر شوال فاتفق أن الافرنج كبسوهم في الشوانى وأخذوا خمس شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبح ونجا وأخذ الباقون وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها فى آخر شوال أول كانون الاول وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور فسار كل واحد الي بلده وبقى السلطان بعكا فى حلقته وأرسل الي هونين وفتحها بالامان

(ذكر غير ذلك من الحوادث)

فى هذه السنة سار شمس الدين محمد ابن المقدم بعد فتح القدس حاجا وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج فى عام واحد فسار ووقف بعرفات ولما افاض أرسل اليه طاستكين أمير الحاج العراقى يمنعه من الافاضة قبله فلم يلتفت اليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال فجرح ومات شهيدا ودفن بمقبرة المعلي

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة فشتي السلطان فى هذه السنة بعكا ثم

سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أمير ايقال له قايماز النجمى
وسار منها فى ربيع الاول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب الى
الاطراف باجتماع العساكر وأقام فى دمشق خمسة أيام وسار من دمشق
منتصف ربيع الاول ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها
فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين . ولما تكاملت عساكره
رحل ونزل تحت حصن الاكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج وسار من
حصن الاكراد فنزل على أنطرسوس فوجد الافرنج قد أخلوا أنطرسوس
فسار الى مرقية فوجدهم قد أخلوها أيضاً فسار تحت المرقب وهو الاسبتار
فوجده لا يرام ولا لا حد فيه مطمع فسار الى جبله ووصل اليها ثامن جمادى
الاولى وتسلمها حالة وصوله فجعل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن
الداية صاحب شيزر ثم سار السلطان الى اللاذقية فوصل اليها فى الرابع
والعشرين من جمادي اولي ولها قلعتان فحصر القلعتين . ولما ملك السلطان
اللاذقية سلمها الي الملك المظفر تقى الدين فعمرها وحصن قلعتيها . وكان تقى
الدين عظيم الهمة فى تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة ثم رحل
السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادي الاولى الى صهيون
فحاصرها وضايقها وطلب أهلها الامان فلم يجبهم الا على أمان أهل القدس
فيما يؤدونه فأجابوا الى ذلك وتسليم السلطان قلعة صهيون وسلمها الي أمير
من أصحاب يقال له ناصر الدين ثم فرق عسكره فى تلك الجبال فملكوا حصن
بلاطنوس وكان الافرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه وملكوا حصن
العيد وحصن الجماهونين ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادي الآخرة
ووصل الى قلعة بكراس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها

ووجدها منيعة وضايقها فألقى الله تعالى فى قلوب أهلها الفزع وطلبوا الامان. وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادي الآخرة بالامان فارسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها علي قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وفى أثره وكان فى الحصن وفي الحصون المذكورة من أسري المسلمين الجم الغفير فأطلقو وأعطوا الكسوة والنفقة ثم سار السلطان من الشغر الي برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف فى السابع والعشرين من جمادي الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها . قال مؤلف الكامل ابن الاثير كنت مع السلطان فى مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو علي العاصى بالقرب من انطاكية فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ثم سار الي دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالامان على شرط أن لا يخرج منها أحد الا بثيابه فقط وتسلمها تاسع عشر رجب . ثم سار عن دربساك الى بغراس فحصرها وتسلمها بالامان على حكم أمان دربساك وأرسل بيمند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل أسير عنده فأجاب السلطان الي ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب انطاكية حينئذ أعظم ملوك الافرنج فى هذه البلاد فان أهل طرابلس سلموا اليه طرابلس

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة سار الى حلب ثالث شعبان وسار منها الى دمشق واعطي عماد الدين زنكي دستورا وكذلك اعطى غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر

ابن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي وكان مقيما هناك وكان من عباد الله تعالى الصالحين وله كرامات ظاهرة . وكان مع السلطان أبو فليتة الامير قاسم بن مهنا الحسيني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وشهد معه مشاهده وفتوحاته وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع الي قوله ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم فاشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان ان العمر قصير والاجال غير مأمون وكان السلطان لما سار الي البلاد الشمالية قد جعل علي الكرك وغيرها من يحاصرها وخلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فارسل أهل الكرك يطلبون الامان فامر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد *

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان الي صفد فحصرها في ذي القعدة وسير أهلها الى صور وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ظهر ذلك فيما بعد ثم سار السلطان الي القدس فعيد فيه عيد الاضحي ثم سار الى عكا فاقام فيها حتي انسلخت السنة

وفي هذه السنه أرسل قزل ابن الدكز يستنجد بالخليفة الامام الناصر على طغريل بن ارسلان بن طغريل السلجوقي ويحذره عاقبة أمره فارسل الخليفة عسكر الي طغريل والتقوا ثامن ربيع الاول قرب همذان فانهزم عسكر الخليفة وغنم طغريل أموالهم وأسر مقدم العسكر جلال عبد الله وزير الخليفة *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارتون وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه فلما بقي للمده ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان

اسم صاحب الشقيف ارناط فقال له السلطان في التسليم فقال لا يوافقني عليه
عليه أهلي فامسكه السلطان وبعثه الي دمشق فحبس *

(ذكر حصار الافرنج عكا)

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالامان فكثر
جمهم حتي ساروا في عالم لا تحصي كثرته وارسلوا الي البحرين يستنجدون
وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه وقالوا هذا
نبي العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الافرنج
في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الي عكا من صور ونازلوها في منتصف
رجب من هذه السنة وضايقوا عكا وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر
ولم يبق للمسلمين اليها طريق فسار اليهم السلطان ونزل قريب الافرنج وقاتلهم
في مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة
في ميمنة السلطان على الافرنج فازالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح
الطريق الي المدينة يدخل المسلمون ويخرجون وأرسل السلطان الى عكا عسكر
نجدة ولحق من جملتهم أبو الهيجاء السمين وبقي المسلمون يغادون القتال
ويراحونه الى العشرين من شعبان ثم كان بين المسلمين وبينهم وقعة عظيمة
فان الافرنج اجتمعوا وضربوا امام السلطان مصاف وحملوا علي القلب فازالوه
وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان وانحاز السلطان الي
جانب وانضافت اليه جماعة وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة فحمل
السلطان على الافرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فافنوهم قتلا
وكان قتلى الافرنج نحو عشرة آلاف نفس ووصل المنهزمون بعضهم الى طبرية
وبعضهم وصل الى دمشق *

وجافت الارض بعد هـذه الوقعة ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج فاشارعليه الامراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر شهر رمضان الي الخروبة فلما رحل تمكن الافرنج من حصارعكا وانبسطوا فى تلك الارض . وفى تلك الحال وصل اسطول للمسلمين فى البحر مع حسام الدين لؤلؤ وكان شهما فظفر ببطسة للافرنج فاخذها ودخل بها الي عكا فقويت قلوب المسلمين وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الى اخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصوله

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

فيها توفى بالخروبة الفقيه عيسى وكان مع السلطان وهو من أعيان عسكره وكان جنديا فقيها شجاعا وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزى

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد الي قتال الافرنج على عكا وكان الافرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاءوا بخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة وألبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة ووصلت الي السلطان العساكر من البلاد وبلغ المسلمين وصول ملك الالمان وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية فسلط الله تعالى على الالمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم فى الطريق . ولما وصل ملكهم الى بلاد الارمن نزل فى نهر هناك يغتسل فغرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره طائفة

الى بلادهم ولم يصل مع ابن ملك الالمان الي الافرنج الذين على عكا غير قدر ألف مقاتل وكفى الله المسلمين شرهم وبقى السلطان والافرنج على عكا يتناوشون القتال الي العشرين من جمادى الآخرة فخرجت الافرنج من خنادقهم بالفارس والراجل وازالوا الملك العادل عن موضعه وكان معه عسكر مصر فعطفت عليهم المسلمون وقتلوا من الافرنج خلقا كثيرا فعادوا الى خنادقهم وحصل للسلطان مغص فانقطع فى خيمته ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن اذا أراد الله أمرا فلا مرد له

﴿ذكر غير ذلك من الحوادث﴾

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء واشتدت الرياح أرسل الافرنج المحاصرون عكا مراكبهم الي صور خوفا عليها أن تنكسر وانفتح الطريق الي عكا فى البحر وارسل البدل اليها وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل

وفيها في ثامن شوال توفى زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل وكان مع السلطان بعسكره ولما توفى أقطع السلطان اربل أخاه مظفر الدين على كوكبوري بن زين الدين على كوجك واضاف اليه شهرزور واعمالها وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسار مظفر الدين الى اربل وملكها

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسميساط والموزر الملك المظفر تقى الدين عمر زيادة على ما فى يده وهو ميافارقين ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وبكراس

(ذكر استيلاء الافرنج على عكا)

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستمر حصار الافرنج لعكا الى هذه السنة وكانوا قد احاطوا بها من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الامان من الافرنج علي مال وأسري يقومون بها للافرنج فاجابوهم الي ذلك وصعدت أعلام الافرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الاخرى من هذه السنة واستولوا علي البلد بما فيه وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد وقالوا انما نحبسهم ليقوموا بالمال والاسري وصليب الصلبوت وكتبوا الى السلطان بذلك فحصل ماأمكن تحصيله من ذلك وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا الى ذلك فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين ثم قتل الافرنج منهم جماعة كثيرة واستمر الباقون في الاسر

وبعد استيلاء الافرنج وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم ووصلوا الي سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقا كثيرا ثم سار الافرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فملكوها

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا فسار اليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقليع أسوارها وتخريبها فدكها الى الارض ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان رحل ثاني شهر

رمضان الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد ثم سار الى القدس وقرر أموره وعاد الي مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان ثم تراسل الافرنج والسلطان فى الصلح على أن يتزوج الملك العادل باخت ملك الانكتار ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك الا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الافرنج من يافا الي الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاوحال بينهم فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور وسار الي القدس لسبع بقين من ذي القعدة ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه وأخذ السلطان فى تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدى به العسكر فكان يجتمع عند العمال فى اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام *

* ذكر وفاة الملك المظفر تقى الدين عمر *

كان الملك المظفر قد سار الى البلاد المرتجعة من كوكبورى التى زاده اياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها فامتدت عين الملك المظفر الي بلاد مجاوريه واستولى على السويداء وحاني والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها ونازل ملاذ كرد وهي لبكتمر وضايقها وكان فى صحبته ولده الملك المنصور محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفى به يوم الجمعة لاحدي عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة وأخفي الملك المنصور وفاته ورحل عن ملاذ كرد ووصل الى حماة ودفنه بظاهرها وبني الى جانب

التربة مدرسة وذلك مشهور هناك *

وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس ركنا عظيما من أركان البيت الايوبي وكان عنده فضل وأدب وله شعر حسن واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفى حسام الدين بن محمد بن لاجين وأمه ست الشام بنت ايوب أخت السلطان فأصيب السلطان فى تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته *

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطاً نسبه السلطان فيها الى العصيان وكاد أمره يضمحل بالكلية فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل فى استعطاف خاطر السلطان فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع فى الملك المنصور حتى أجابه السلطان وقرر للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل بعد أن شرط السلطان ان العادل ينزل عن كل ماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصه بمصر وأن يكون عليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء الى القدس ولما استقر ذلك سار الملك العادل الى البلاد الشرقية لتقرير أمورها وعاد الي خدمة السلطان فى آخر جمادي الآخرة من السنة القابلة أعني سنة ثمان وثمانين ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته فلما رأي السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء واكرمه وأنزله فى مقدمة العسكر *

﴿ ذكر غير ذلك من الحوادث ﴾

فى هذه السنة فى شعبان قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن الدكز

وهو الذي ملك أذربيجان وهمذان واصفهان والرى بعـد أخيه محمد بن البهلوان وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره ثم ان قزل ارسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل فى بعض البلاد وسار قزل أرسلان بعد ذلك الى اصفهان وتعصب على الشفعوية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد الي همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشـه وتفرق عنه اصحابه فدخـل اليـه من قتـله على فراشه ولم يعلم قاتله *

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم الي صلاح الدين . وسببه ان والده فرق مملـكته على أولاده وأعطى ولده هذا ملطية ثم تغلب بعض اخوته على أبيه وألزمه باخذ ملطية من أخيه المذكور فخاف من ذلك وسار الى السلطان ملتجئا اليه فاكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل وعاد معز الدين الى ملطية فى ذي القعدة . قال ابن الاثير لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه ترجل معز الدين وترجل السلطان ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان اذ ذاك فسوى ثياب السلطان أيضا فقال بعض الحاضرين فى نفسه ما بقيت تبالى ياابن أيوب بأى موتة تموت يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ابن أتابك زنكى

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوساً أمر بخنقه الملك الظاهر غازى بأمر والده السلطان قرأ المذكور الاصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين ثم سافر الى حلب وكان علمه اكبر من عقله فنسب الي انحلال العقيدة وانه يعتقد مذهب

الفلاسفة فأفتى الفقهاء باباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه وكان اشدهم فى ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل * حكي الشيخ سيف الدين الآمدى قال اجتمعت بالسهروردى فى حلب فقال لي لابد أن أملك الارض فقلت من أين لك هذا قال رأيت فى المنام كأني شربت ماء البحر فقلت لعل ذلك يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا فرأيته لا يرجع عما وقع فى نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل وكان عمره لما قتل ثمانية وثلاثين سنة وله عدة مصنفات فى الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الاشراق وكان يزعم انه يعرف السيمياء وله نظم حسن *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وفيها سارت الافرنج الى عسقلان وشرعوا فى عمارتها فى محرم والسلطان بالقدس. وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالي قتله الباطنية وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان الي صور *

(ذكر عقد الهدنة مع الافرنج وعود السلطان الي دمشق)

وسبب ذلك ان ملك الانكتار مرض وطال عليه البيكار فكتب الي الملك العادل يسأل الدخول على السلطان فى الصلح فلم يجب السلطان الي ذلك ثم اتفق رأى الامراء على ذلك لطول البيكار وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فاجاب السلطان الى ذلك واستقر أمر الهدنة فى يوم السبت ثامن عشر شعبان وتحلفوا على ذلك فى يوم الاربعاء الثانى والعشرين من شعبان ولم يحلف ملك الانكتار بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك وحلف النكدهرى ابن اخته وخليفة في الساحل وكذلك حلف غيره من عظماء الافرنج ووصل ابن الهنفري وباليان الي خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين وأخذوا يد السلطان واستحلفوا الملك العادل والملكين

الافضل والظاهر والملك المنصور والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص.
والامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك والامير بدرالدين دلدرم.
الياروقي صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان ابن الداية صاحب شيزر
والامير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار.
وعقدت الهدنة عامة فى البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة اشهر
أولها أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان »

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الافرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها
وحيفا وعملها وعكا وعملها وأن تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان
دخول بلاد الاسماعيلية فى عقد هدنته واشترط الافرنج دخول صاحب
انطاكية وطرابلس فى عقد هدنتهم وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين
المسلمين فاستقر القاعدة علي ذلك

ثم رحل السلطان الى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله
وأمر بتسديد أسواره وزاد فى وقف المدرسة التى عملها بالقدس وهذه
المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصند حنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم
مريم ثم صارت فى الاسلام دار علم قبل أن يتملك الافرنج القدس ثم لما
ملك الافرنج القدس أعادها كنيسة كما كانت قبل الاسلام فلما فتح السلطان
القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها الى القاضى بهاء الدين
ابن شداد

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب
عسقلان وأمر أن يخرج من بها من الافرنج وعزم على الحج والاحرام من
القدس وكتب الي أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن بذلك ثم ثبطه الامراء

وقالوا لا نعتمد علي هدنة الافرنج خوفا من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال الي نابلس ثم الي بيسان ثم الى كوكب فبات بقلعتها ثم رحل الى طبرية ولقيه بها الامير بهاء الدين قراقوش الاسدي وقد خلص من الاسر وكان قد أسر بعكا لما أخذها الافرنج مع من أسر فسار قراقوش مع السلطان الى دمشق ثم سار منها الى مصر

ثم سار السلطان الي بيروت ووصل الى خدمته بيمند صاحب انطاكية يوم السبت الحادى والعشرين من شوال فاكرمه السلطان وفارقه فى غد ذلك اليوم وسار السلطان الي دمشق ودخلها يوم الاربعاء لخمس بقين من شوال وفرح الناس به لان غيبته عنهم كانت مدة اربع سنين وأقام العدل والاحسان بدمشق وأعطى السلطان العساكر الدستور فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لا لقاء بعده وسار الى حلب وبقي عند السلطان بدمشق ولده الافضل والقاضى الفاضل وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس الي الكرك لينظر الى مصالحه ثم عاد الي دمشق طالبا البلاد الشرقية التي سارت له بعد تقي الدين فوصل الي دمشق فى الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان للقائه. وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفى الامير سيف الدين المشطوب بنابلس وكانت اقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس علي مصالح القدس وأقطع الباقي للامير عماد الدين احمد بن المشطوب واميرين معه

﴿ ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ﴾ (واخبار الذين تولوا بعده)

في هذه السنه أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة فى منتصف شعبان

توفى السلطان عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قطلومس بن أرسلان بيغو بن سلجوق وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة وكان له عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطرا من بلاد الروم واكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور وكان قد أعطاه أبوه سيواس فسولت له نفسه القبض على ابيه واخوته والانفراد بالسلطنة وساعده على ذلك صاحب ارزنكان فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقال لولده وهو في قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ثم أنه أشهد على والده بانه جعله ولي عهده ثم سار الي حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه وهو يظهر أن ما يفعله انما هو بامر والده فخرج عسكر قيسارية لحربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب الى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فاكرمه وعظمه كما يجب عليه فرجع قطب الدين ملكشاه الي قونية وخطب لنفسه بالسلطنة وبقي أبوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحد ينتقل الى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو فقوي أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد وسار معه الي قونية فملكها وأخذها من ابنه ملكشاه ثم سار الي اقصرا واتفق أن عز الدين اقليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور فاخذه ولده كيخسرو وعاد به الي قونية فدفنه بها واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونيه اذ اثبت أنه ولي عهد أبيه ثم أن ركن الدين سليمان أخا غياث لدين كيخسرو وقوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو الى

الشام مستجير بالملك الظاهر صاحب حلب ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج ارسلان بن سليمان فرجع كيخسرو الى بلاد الروم وازال ملك ابن سليمان وملك بلاد الروم جميعها واستقرت له السلطنة ببلاد الروم وبقى كذلك الى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاووس بن كيخسرو ثم توفى كيكاووس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو وتوفى كيقباد سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو وكسره التتر سنة احدي وأربعين وستمائة وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته سلاطين بلاد الروم فى الحقيقة لان من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فلكا معامدة مديدة ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين الي القسطنطينية وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد في الحقيقة للتتر ثم ان البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنا لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب للتتر على مانذكره ان شاء الله تعالي

(ذكر غير ذلك من الحوادث)

وفى هذه السنة غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم وقتل مالا يحصى. وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن الدكز وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وفيها توفي راشد الدين سليمان بن محمد وكنيته ابو الحشر صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام واصله من البصرة

(ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف ابن أيوب)

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان بدمشق على اكمل ما يكون من المسرة وخرج الى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوما وصحبته أخوه الملك العادل ثم عاد الي دمشق وودعه أخوه العادل وداعالالقاء بعده فمضى الي الكرك وأقام به حتى بلغه وفاة السلطان وأقام السلطان بدمشق وركب في يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج وكان عادته ان لا يركب الا وهو لابس كزاغند فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ولم يلبس الكزاغند ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حملوه معه ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ووصل اليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن ثم عاد السلطان بين البساتين الى جهة المنيبع ودخل الي القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كل عظيم وغشيته نصف الليل حمي صفراوية وأخذ المرض في التزايد وقصده الاطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه مالا يمكن حكايته وحقن في العاشر حقنتين فحصل له راحة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث ان احتضر في الليل ذكره بالشهادة وتوفي السلطان في الليلة المذكورة أعني في الليلة المسفرة عن نهار الاربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر

وفاته ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله الي رحمة الله تعالى وكرامته وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الاربعاء المذكور فى تابوت مسجي بثوب وجميع ما احتاجه من الثياب فى تكفينه أحضره القاضى الفاضل من جهة حل عرفها وصلي الناس عليه ودفن في قلعة دمشق فى الدار التى كان مريضاً فيها وكان نزوله الي جدثه وقت صلاة العصر من النهار المذكور .

وكان الملك الافضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عند ما اشتد مرضه وجلس للعزاء فى القلعة وأرسل الملك الافضل الكتب بوفاة والده الى أخيه العزيز عثمان بمصر والى أخيه الظاهر غازى بحلب والي عمه والملك العادل ابي بكر بالكرك ثم ان الملك الافضل عمل لوالده تربة قرب الجامع وكانت دارا لرجل صالح ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنين وتسعين وخمسمائة ومشي الملك الافضل بين يدى تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث الي باب البريد وأدخل ووضع قدام المنبر وصلى عليه القاضي محي الدين ابن القاضي زكي الدين ثم دفن وجلس ابنه الملك الافضل فى الجامع للعزاء ثلاثة أيام وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فى هذه النوبة مالا عظيما *

وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت فى شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وكان عمره قريباً من سبعة وخمسين سنة وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنه وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة وكان أكبر أولاده الملك الافضل نور الدين على بن يوسف ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة وكان العزيز

عثمان أصغر منه بنحو سنتين وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منها وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر

ولم يخلف السلطان صلاح الدين فى خزانته غير سبعة وأربعين درهما وجرم واحد صورى وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً . قال العماد الكاتب حسبت ما أطلقه السلطان فى مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب واكاديش فكان اثنى عشر ألف رأس وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة فى القتال فلم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به *

ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا فى جماعة وكان اذا عزم على أمر توكل على الله ولا يفضل يوما على يوم وكان كثير سماع الحديث النبوى وقرأ مختصرا في الفقه تصنيف سليم الرازي وكان حسن الخلق صبوراً على مايكرهه كثير التغافل عن أصحابه يسمع من أحدهم مايكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه . كان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزة فأخطأته ووصلت الي السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى ليتغافل عنها وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه الا بخير وطاهر اللسان فما ولع يشتم قط . قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال . وفات بفواته الافضال . وغاضت الايادي . وفاضت الاعادي . وانقطعت الارزاق . وادلهمت الآفاق . وفجع الزمان بواحده وسلطانه . ورزىء الاسلام بمشيد أركانه

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفى السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر فى الملك بدمشق وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك فيصل نور الدين على وبالديار المصرية

الملك العزيز عثمان وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب وبحمص والرحبة وتدمر شير كوه بن محمد بن شير كوه ابن شاذى وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصري وهو فى خدمة أخيه الملك الافضل وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم سابق الدين عثمان ابن الداية بيذ شيزر وابو قبيس وناصر الدين بن كورس ابن خماردكين بيده صهيون وحصن برزية وبدر الدين دلدرم بن بهاد الدين ياورق بيده تل باشر وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية *

والملك الافضل هو الاكبر من أولاد السلطان والمعهود اليه السلطنة اواستوزر الملك الافضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الاثير مصنف المثل السائر وهو أخو عز الدين بن الاثير مؤلف التاريخ المسمي بالكامل فحسن للملك الافضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الي أخويه العزيز والظاهر قال اجتمعت اكابر الامراء بمصر وحسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا فى أخيه الافضل فمال الي ذلك وحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز

تم بحمد الله وعونه والحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على سيدنا محمد وآله
وصحبة اجمعين

يقول مصححه راجي غفران المساوى محمد محمد الرخاوي

الحمد لله الذي جعل سير الأولين تذكرة لأولى الألباب والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي فتح للهداية أبواب وعلى آله وأصحابه الكرام الأنجاب وبعد فقد تم بعون الله الملك الوهاب طبع كتاب

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

فى سيرة رافع علم العدل والاحسان صلاح الدين الايوبى غفر الله له ولجميع المسلمين آمين

وذلك فى يوم السبت ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٤٦ من هجرة خير البريه

وذلك بمطبعة حضرة الفاضل المحترم السيد محمد افندى على صبيح الكائنة بجوار الازهر الشريف بمصر المحميه

